

المسيح الأسمر

الطبعة الأولى

1446 هـ / 2024 م

اسم الكتاب: المسيح الأسمر

المؤلف: الشفيق حريقة

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 96 صفحة

عدد الملازم: 6 ملزمة

مقاس الكتاب: 20 x 14

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2024 / 33538

الترقيم الدولي: 978-977-8796-26-1

القاهرة - جمهورية مصر العربية

01012355714

01152806533

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



دار الشفيق



جميع حقوق الطبع والنسخ
والترجمة محفوظة لدار البشير
للثقافة والعلوم، حسب قوانين
الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ
أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر
أيّة معلومات أو صور من هذا
الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

المسيح الأسمر

رواية

تأليف

الشافي حريقة

دار البشير

الإهداء

إلى روح صديقي أمين منصور.. إلى روح كل من طالتهم
يد الجنويد الباطشة.. إلى النازحين والنازحات واللاجئين
واللاجئات من أبناء وطني الذين يواجهون آلة القتل والقمع
والتشريد.. إلى مدن وقرى خلت من ساكنيها.. إلى جنوب
طرقا تحن إلى شمال خطواتنا، إلى نوافذ يتيمة تركناها خلفنا
دونما رفقة.

بيت شعر الافتتاحي

إِذَا الْحَرْبُ حَلَّتْ سَاحَةَ الْقَوْمِ أَخْرَجَتْ عُيُوبَ رِجَالٍ يُعْجِبُونَكَ فِي الْأَمْنِ

[أوس بن حجر]

المقدمة

كما يقول أدورنو: «إن الفن هو إعادة صياغة للعالم».

هكذا يمكن النظر لرائعة الشفيح «المسيح الأسمر»، فهو ينطلق من فضاء مُغلق ينفّث رويدًا رويدًا، ليفك تعقيدات الأشخاص، معرفيًا التجربة الإنسانية من مثالياتها، فنرى شخوصه يتحركون بسلاسة، محمّلين بهزائهم، وإخفاقاتهم، وأكاذيبهم، ليصوغ لنا عالمًا نابضًا، تستشعر فيه الدم الذي يغلي، والعرق الذي يتصبّب، والدموع التي تدفعها المأساة.

في رحلة مجنونة، بأجنحة من الدهشة، يأخذنا الروائي الشاب الشفيح، لنسبر أغوار أرضٍ جديدة علينا، إنها الوطن بمعناه الشمولي: ذاكرة الأرض، الإنسان، المُدن الشرسة، الحكومات، واقع البؤس اليومي، مأساة «الشغيلة»، المنفى بمعناه الأنطولوجي والمجازي، سواء الهجرة من موطن النشأة، وما يصحبها من قلق إزاء مجابهة المجهول، أو ذلك الشعور بالغربة الذي تستشعره الذات الواعية حين تواجه حقيقة واقعها عاريةً، لتكتشف غياب الآخر الذي يتفهم حوجاتنا الصغرى، واستجاباتنا تجاه الشقاوة اليومية، فتضيع الذات وسط دوامة الواقع الاجتماعي الذي يُجيش

الأحاسيس والرغبات الفردية لصالح خطابات العرف والتقليد.
إذن.. هي رواية المحنة البشرية في المجتمعات التي صمّمت
خارطتها أيدي الأجداد، بفولاذ.

فينطلق عبر مسيحه، ليزيح تلك القشور عن المسكوت.
ويستجوب الواقع عبر مسيحه الذي شيّده من لحم الإنسان
اليومي.

ثم أطلقه في تلك القرية الطرفية، معرياً الخرافات التي تتغذى
من ثدي العائلات، والقصاص التي تدفع البلاد إلى الخلف.
ينجح الشفيح - ببراعة معهودة فيه - في بناء شخوصه، منطلقاً
من البيئة نفسها، حتى تكاد تختفي الشخصية الرئيسة، ثم تظهر
لتباغت القارئ، ناقلة إياه نحو شخصية أخرى.

فحكاية الغفير الذي يعهد إليه الناظر ملء الفراغ الذي يخلفه
المدرس، هو تناص مع واقع مدرسي، أفقرته السياسات، فيتفتل
ذلك الغفير وسط عقول تفتحت شرقتها للتو، مسمماً إياها بسرد
الأساطير والخرافات حول جده الذي عاصر المهدي، محرفاً
التاريخ والعقول الغضة.

ليأخذنا بعدها في جولة داخل المُدن: الأطعمة المكدسة
في الطرقات، المتسولون، ويخرج بنا إلى الصحراء، وكأننا في
"مرجيجة" ترتفع وتنخفض، لتعرف على إفريقيا وذاكرة شعوب

مسحوقة بأيدي الواقع السياسي المأزوم.

ومن تلك الغربية، غربة الذات، وغربة الآخر الاجتماعية، تتشكل تناقضات بطلنا الرئيس، الذي عمل على نحته بصبر، مهياً المناخ لتراجيديته الساحرة، ليس فقط بمأساته، بل بالطريقة التي تشكلت بها المأساة.

فالمسيح لدى الشفيح ليس بمعناه الميثولوجي مخلصاً يمسك شمعدانه، ليأخذ التائبين إلى النور، بل هو ضمير أعلى يُخاطب القارئ بواقعه، ليمر به نحو نفسه، ليراها كما هي: طفولتها الناقصة، والشهوات الأولى، والتمرد في النظام الأبوي الصارم، والواقع الاقتصادي الذي يسحق أبطاله ويرمي بهم في السجون، والصحارى، ومناجم الملح.

بقلم الشاعر: محمد عزوز

الفصل الأول

الأفغانية العجوز

مر وقت ليس بالقصير دون أن يكاتبه أحد، في هذا العالم البارد
 الفارغ الكئيب كطلب صفيح يعلوه الصدا، وليس لديه صندوق يريد
 أمام نزل العزاية المتهالك في الحي الأرطاوي القديم الذي يتشاركه
 مع عشرين شخصاً من أبناء جنسيته الفقراء الحالمةين.. جاؤوا جميعاً
 بلا سابق موعد ليدفنوا أحلامهم بالشراء والعيش الرغيد ومغادرة
 عالم أنهمكه الفقر وأكل جلده حتى وصل العظم الواهن.. جاؤوا
 أيضاً ليدفنوا نصف عُمر هنا في هذه المدينة الرملية الصغيرة الميتة
 التي لم تخرج بعد من ركام بيضة كفنها الملفوف عليها بإحكام،
 ليمنع عنها هواء الحضارة.

المدينة التي ترفل في بدويتها منذ فجر التاريخ البعيد، ويغلب
 علي ساكنيها رعاة الشاة المضاربين في بورصة الشعير والعشب
 الجاف والقمح ساكني الخيام المصنوعة من وبر الماعز والإبل،
 وقليل من الحضر الذين جاؤوها من مدن أخرى بعيدة، فأحكموا
 قبضتهم على الوظائف الحكومية والتجارة والزراعة، وشيدوا
 قصوراً و"فللاً" ومنازل متعددة الطوابق، وجعلوا منها نصف
 حضرية تقاوم بدويتها وتتصارع معها في عراق أبدي لا منتصر
 فيه.. مدينة لا تشبه قريته التي ينحدر منها.. قريته التي شهدت
 فرحة أمه يوم أن جاءت به إلى هذه الدنيا.. يومها صرخ، فدسته أمه
 بين أحضانها، كما تفعل كل امرأة مع وليدها الحديث.

القرية التي تمتد على طول شفتيه كابتسامة عذراء، رغم بساطة مبانيها، وفقر ساكنيها، وأحلامهم التي لا تتجاوز الطعام والشراب والاستماع لأغنيات حماسية تمجد ماضيهم وتغازل كيف المستقبل، رغم عوزهم وتعاستهم فإنهم أصلب من الحديد عند مواجهتهم المتاعب والشدائد.. مَنْ تربي على كسرة خبز جافة، وحمل أكياس الرمل وهو بعدُ صغير لمواجهة طوفان النيل، فهو قادر على التصدي لكل خَطْب يعترض طريقه.

مرت سنوات وسنوات، عاش فيها يعقوب وحيداً دونما زوجة، كذكر بط خصي، في غرفة طينية تشبه أكواخ الفلاحين في قرى غابات الأمازون، وبنيات الأحياء الفقيرة في مدن إندونيسيا، ومدافن الموتى الغارقة في بحر ألف عام من التاريخ المجهول الذي لم يعد يذكره أحد وظل محنطاً في الكتب وعقول العلماء، وكنقوش على جدران المعابد، وفي ذاكرة الشعوب الحزينة التي لم تترك لها صعوبات الحياة أن تظل متقدة تحت رهن كل من يطلب حضورها.. غرفة دفن فيها كثيراً من أحلامه، كما دفن فيها أخبار موتاه التي كانت تترى إليه عبر خطابات بريديّة بخط يعرفه جيداً.. القرية التي جاء بها معه في غربته كحقيته الجلدية التي اشتراها من سوق الشمس بنصف جنيه باعها له طفل صغير.

غرفة ذات جدران تشبه خارطة بلاده قبل أن تفقد جزءاً منها وهي ترقص تحت أضواء الفلاشات وابتسامات أبناء اليانكي وبناته..

غرفة دخن فيها الكثير من الحشيش والنارجيلة وسجائر صنعت من تبغ رخيص تافه جاء به المهربون من بلاد بعيدة عبر السنايك متجاوزين نقاط الجمارك ورجال المواصلات والمقاييس، ففي البحر طرق يعرفونها المهربون وحدهم وتجهلها السفن التجارية.. وضاجع فيها فتيات بدينات نحيفات قصيرات بيضاوات سمرأوات أسيويات زنجيات أوروبيات وأخريات من بلاد لا يعلم جنسيتها، ولا يريد أن يعلم، وسيدات مجتمع تافهات، كل الأنواع من النساء جاء بهن هنا في أحلامه إلى هذا المكان الموحش وحشة وحدته، وعراهن من ثيابهن قطعةً قطعةً تحت هواء المروحة المشتعلة على الدوام، فهو يرفض كل عرض لإيقافها، تظل مشتعلة كطقس جنسي إفريقي جنوني كامن في روحه المعذبة، طقس نقل إليه من القروء التي كان يربيهما في صغره ويلهو بها.. بعضهن تذوق طعم الفلفل الحار في شفاههن الغليظة التي تشبه شفاه الزنجيات الإفريقيات، وبعضهن اشتم من رائحة القرنفل والفلفل الحار في عرق إبطهن، وبعضهن كن بلا رائحة تميزهن.. كان يحتفظ بسرأويل كل اللواتي عبر بهن إلى شواطئ النشوة وكل من مرّت من هنا، حتى يشهد الدنيا والناس على أوهام انتصاراته.

المكان الذي هبط إليه من سماء ملبدة بسخام الفقر والمرض والجوع والضياع.. المكان الذي يحاصره ضجيج لاعبي الورق وحجارة الدومينو وصوت قررة النارجيلة وحرارة جمرها ورائحة

دخانها وأحاديث كرة القدم التي يكرهها والسياسة التي لا تنتهي.
 هنا في هذا العالم الصغير تجسدت مأساة رجل، بدأت من
 الطين الذي خلق منه، وانتهت في وحل طين لا نهاية لقراره..
 يقتات الأخبار القادمة من بلاد السافنا الفقيرة المغروسة في لحم
 ذاكرته، كشجرة قرض عجوز لها أصل وجذور وثمار، تسلل فرعها
 وانفصل عن المنظومة، وانفصلت عنه كل العمليات المواتية
 للحياة، فأصابه اليباس، وتناوشته فؤوس الحطابين والفحامين،
 والمجانين، وبائعات الهوى، وصانعات البخور، ومناشير مصانع
 أعواد الثقاب، ورجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وله
 حكايات مع هؤلاء الشيوخ ذوي العباءات السوداء الفضفاضة
 والذقون الكثيفة التي تغطي وجوههم.

ذات يوم بينما هو جالس علي مصطبة من الإسمنت أمام منزل العزابة
 في الحي الأرطاوي القديم الذي يقع في الناحية الشمالية للمدينة، ولم
 يكن أقرانه قد جاؤوا بعد من أماكن عملهم، كان مفلسًا تمامًا ومكدرًا
 ومحطمًا، تحاصره الهموم، وتطبق على رقبتة كطوق كلب حراسة،
 يضع رأسه بين راحتيه، ويضغط عليه، وينفث الهواء الساخن.

قال له أحد رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد أن
 أوقف السيارة الجيب السوداء موديل ٢٠٠٥ أمامه:

هداك الله يا زول، بلاك قاعد في الشارع والصلاة قائمة في
 المسجد!

- لماذا لم تذهب لتشهداها مع أقرانك من المسلمين؟! أأنت فردًا منهم؟!

- ألم يبلغك حديث النبي الذي قال فيما معناه: لأذهبن إلى رجال تخلفوا عن أداء الصلاة في المسجد، فأحرق عليهم بيوتهم؟! هنا لم تسعفه المباغثة ليجيب عن سؤال الشيخ الذي نزل عليه كالصاعقة، كجحيم فتت صخرة وحدته.

قال يعقوب وهو يحادث نفسه: إنه لا يصلي، ولا يريد أن يصلي، وتساءل: ماذا يريد هذا الشيخ الثمانيني مني؟! سواء أكنت أصلي أم لا أفعل، لماذا يدفعونك دفعًا إلى الصلاة في هذه البلاد؟! ألم يخلق الله الجنة والنار وأتاح لنا فرصة الاختيار دونما إكراه في الدين؟!

عاد إلى محادثة الشيخ الثمانيني الذي كان ينتظر أن يجيب عن سؤاله المباغت، بعد وقت قصير كان يحادث فيه نفسه الإمارة بعدم الذهاب إلى الصلاة في المسجد، قال يعقوب موجهًا حديثه للشيخ بصوت خفيض مكسور متعب أرهقته أيام البطالة والعوز: إن شاء الله سأذهب لأصلي في المسجد مع الجماعة متى ما شفيت من الداء الذي ألمَّ بي يا شيخ، وأوضح يعقوب لهم أنه يعاني من داء الإسهال المزمن منذ ثلاثة أيام، ولا يستطيع الذهاب إلى المسجد ليشهد الصلاة مع الجماعة، فقد يباغته الإخراج الذي لا يستطيع التحكم فيه وهو في سجوده أو ركوعه، فهو لا

يريد إيذاء المصلين، فالدين نفسه حثنا علي عدم إيذاء الجار في السكن وفي صف الصلاة بأكل بصل أو ثوم يوم الجمعة. قال بعد أن شكرهم على حثه على الصلاة في جماعة: إنه لا يريد أن يذهب إلى النار مع الكفار، ومع عتاة المجرمين والسياسيين الذين خانوا شعوبهم وقتلوا معارضيهم واعتنقوا مذاهب يسارية، وقال: إنه سيصلي هنا في المنزل إلى حين استرداد عافيته. دعا له الشيوخ بالشفاء العاجل، وغادروا المكان يبحثون عن رجل آخر تخلف عن الذهاب إلى الصلاة في المسجد مع الجماعة.

قرر ترك مكانه في المسطبة على الفور قبل أن تدركه إحدى دوريات الشرطة التي تصرخ عبر مكبرات صوتها الذي لا يتوقف بحثاً عن مخالفين لنظام الهجرة والإقامة في بلاد تتعشقر بالنفط، وهو واحد من الذين فروا من مطاردات شبخ البطالة والفقر في بلدانهم، وهبط هذه البلدة عارياً من مال وولد وأوراق تثبت دخوله هذه البلاد بصورة رسمية تمنع عنه المضايقات، كما هبط أبوه آدم من السماء عارياً من ذنب الأكل من الشجرة.

ذهب يعقوب السوداني إلى البقالة الكائنة عند نهاية الشارع الذي يقسم الحي مقر سكنه إلى نصفين عند أول عطفة، وابتاع رغيفين وجبناً وحليياً وعلباً من العسل وسمك التونة الخفيف، لقد باغته الجوع، واعتصر معدته.. جميع العمال غادروا إلى أعمالهم، فكلهم تبتلعهم مهن هامشية: بعضهم يعمل في محطة وقود،

وبعضهم الآخر يعمل سائقًا خاصًا، وكثير منهم يعملون في تربية المواشي وتحميل عربات الشعير والبرسيم الجاف.. تركوه في المنزل يذوب في وحدة عبثية قاتلة، ويصنع لهم وجبة العشاء التي كلفوه بها، فهو يقوم ببعض الخدمات لهم مقابل إطعامه وشرابه وسكنه، مهمة وصفها -بالسخرة- لأحد أصحابه في خطاب أرسله إليه قبل أن يتوقف عن مكاتبته.

لم يطرق بدوي باب المنزل الذي يعد وجهةً لطالبي العمالة السودانية الرخيصة في الحي القديم بحثًا عن عامل تربية مواشٍ، منذ قدومه إلى هذه المدينة، فهي المهنة التي تناسبه ولا يجيد غيرها.. ماذا يفعل رجل لم يتجاوز تعليمه الصف الثالث الابتدائي؟! ابتسم بسخرية عن أسنان صفراء مثرمة من فعل التدخين والصعود.. أخذ يحك رأسه ببطء، وقال وهو يحادث نفسه بقلق: أعرف أن ليس لدي حظ في هذه الدنيا، أنا مجرد فأر فقير تافه تتلاعب به الأيام كيفما أرادت، وكيفما تشاء، وتخلي عنه الجميع بمن فيهم هؤلاء العزابة التعساء الذين لا يصلون ولا يخشون غزوات رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومباغثاتهم، أولئك ذوو العباءات السوداء الذين يداعبون لحاهم على الدوام.

عزابة أشقيا يفعلون كل ما هو منكر في وضح النهار دونما اكتراث أو خوف.

جر جر عظامه المهشمة التي يلفها جلد أسمر متيسس تتقاطع

داخله عروق تبدو نافرة، امتصت دم قلبه، جلد يند عن عمر متقدم
 شارف على الأربعين.. كان مزاج البائع الأفغاني علي أكبر خان
 ابن قرية في ريف كابول كمزاج رجال حركة مقاتلي طالبان، تارةً
 يقصفك بكاتيوشا تعليقاته الساخرة، وأحياناً يعقد معك صفقات
 تثمر عن وقف إطلاق السخرية، والتوقف عن الهراء الذي يدمنه..
 لوح إليه بيد تحمل نصف شريحة من خبز التمس، ودعاه ليشركه
 الفول المطبوخ على الطريقة الأفغانية:

- تعال يا زول، لنفطر معاً.

كان يعقوب أحمد القادم من السودان، من مدينة صغيرة داهمها
 السيل عدة مرات، وغير معالمها، وهجر بعض ساكنيها، مدينة
 تدعى ظل العشر، كفأر هرم هزمه الطاعون جاء ليصرخ صرخته
 الأخيرة قبل أن يموت فوق بقعة من الدم المتخثر.. هنا في مدينة
 الملح الصغيرة المزروعة بأشجار مرزوق وسط هذه الصحراء
 المترامية اللانهائية، ليعلن عن موته موتاً بارداً يشبه قسوة شتائها
 بين كئيبان رمالها الصفراء وتلالها ووديانها وشعابها، كما يموت
 الغرباء في الأصقاع البعيدة عن بلادهم.

كان يعقوب يكنُّ لهذا الأفغاني ذي الأنف الطويل واللحية
 المسبلة التي تغطي نصف وجهه والشعر الكثيف والعمامة الملفوفة
 بإحكام ودًا، لكن لا يظهره له، لتجنب مشاغباته ومناكفاته، فهو لا
 يستقر علي حال، ودُّ وحبُّ نما بحكم اشتراكهما معاً في حرب طرد

السوفيت من أفغانستان أيام سنوات شعارات "الموت للشيوعية الحمراء".. قال يعقوب لنفسه موجهًا كلامه إليه: هذا البدوي القادم من أعماق الكهوف والجبال ورماد الأرض المحروقة بعمامته الكبيرة هل يظن نفسه هارون الرشيد يتقلب في الحرير والديباج، ويرسل الجيوش لنصرة من يشاء وكيفما يشاء، وهذه السحب التي تجري في السماء سيأتيه خراجها أينما أفرغت حليبيها؟!

هذا الأفغاني المتعجرف الذي شارف على الستين أرسل فيلقاً من جيش السوفيت إلى مقبرة في وسط الجحيم، تصيدهم كما الجرذان المصابة بالطاعون والعمى، وقضى عليهم بدم بارد، جندياً إثر جندي، وجمع خوذهم، وصنع منها قصريات لأحفاده، ليتبولوا عليها، وليتغوطوا، كان يفصل رؤوسهم عن أجسادهم، بعد أن يحلق شعر رؤوسهم، ويكتب عليها بموسى الحلاقة: أبلغ سيدك لينين تحيات مقاتل أفغاني بأئس ظل مسجوناً في كهفه لأيام دون طعام وشراب، قل له: إن العالم اليوم يفتقدك، ويفتقد ترهاتك.

كان يحشو بندقيته بالذخائر، ويحشو غليونه بالتبغ وقطع من الحشيش الذي يزرع في مزارع بين الجبال، ويرسلونه عبر الجمال إلى كبار التجار، وبعدها يتم تهريبه إلى العالم عبر منافذ وإنفاق داخل الجبال، لا أحد يعرفها غيرهم.

أخفى يعقوب عن البقال الأفغاني سنواته التي أنفقها في محاربة السوفيت في أفغانستان.. عندما أرسلوهم من بلادهم إلى الجهاد

كانوا في العشرين من العمر، زينوا لهم الموت في هذا السبيل، وغلفوه بالسولفان، وقدموه لهم هديةً لعيد الميلاد.. كانوا أسرى لأفكار ومعتقدات ميتة معلبة، لا يحركون عقلهم ليفكروا في ماهيتها، وفي أي جحيم سينتهون إليه عند نهاية هذا الطريق.. وجدوا أنفسهم في معسكرات التدريب ممرغين في الأوحال، يحملون الصخور وأكياس الرمل وصناديق الذخيرة وجذوع الأشجار، يلتحفون السماء، يجبرون على سماع رجال يصرخون حد البكاء مؤكدين على ضرورة الذهاب إلى هناك لتخليص العالم من شر السوفييت الملاعين قبل أن يصلوا إلى مكة والمدينة والخرطوم ودمشق وبירות والقاهرة، ينطقها بعد أن يبصق عن يمينه وعن شماله.

كانوا يرفلون في هذا الجحيم بينما أقرانهم يتجولون في شوارع الخرطوم وأزقتها وباراتها وبيوت غانياتها المنتشرة في كثير من الأحياء شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا وهم يتأبطون أيدي الفتيات الجميلات ذوات الشعر الأحمر المستعار، يراقصونهن، ويشربون نخب جمالهن، ويلعبونهن في الملاهي الليلية، ويسهرن معهن في سينما كوليزيوم نهاية الأسبوع، يشاهدون الأفلام الأمريكية والمصرية والصينية، ويدخنون سجائر المارلبورو والبرنجي، ويذهبون عند منتصف الليل ليناموا معهن في بيوت الدعارة على أَسِرَّةٍ قدرة في منزل يشبه أسطورة بيت الجميلات النائمات.

كانت الحرب كابوسًا رهيبًا وفظائع مروعة، وكان الموت

يحصد المقاتلين الطارئین على هذه الجبال والكهوف الموحشة حصاداً، كأنما كانوا يساقون إليه سوقاً.. يحصد السوريين والمصريين والأردنيين والشوام والسعوديين والفلسطينيين واللبنانيين والبدون والضائعين بين المذاهب السياسية المتأسلمة والأفارقة المخدوعين مثل يعقوب.. لم يتعرفوا على طبيعة المكان شبراً شبراً، فسرعان ما وقعوا في الأسر، والسوفييت لم يكونوا متسامحين مع الأسرى، فسرعان ما قتلوهم بأبشع الطرق، بمجرد القبض عليهم.

كاد يعقوب يقع في الأسر، لكنه نجا بعد أن تحطمت قذيفة "هاون" صوبت من عمق كهف قريب، ومن مسافة الصفر كانت دورية سوفيتية تتقدم نحو معسكرهم الصغير، ما زال هذا المشهد عالقاً في فضاء ذهنه، لقد ارتفعت حينها الأرض إلى السماء، ثم هبطت محدثةً دوياً هائلاً، وتراءت له النهاية من قرب كنصف شمس محترقة، قطع حبات من ثمار اللالوب كان يدسها في فمه على الدوام.

سمع صوت أمه في القرية وهي تدعو الله بصوتها الذي يألفه، ليعود إلى قريته بعد غياب دام سنوات.. أغنامه في الحظيرة ثغت بحشرجة على غير عاداتها، ونسة شباب القرية عند دكان ود الأحمر، مشاجرات قعدات العرقي والقمار في فريق الحلب.. كل معيّناتهم القتالية كانت خطباً حماسيةً وبندقية "كلاشنكوف"

وقنينة ماء بلاستيكية، وبعدها قالوا لهم: انطلقوا إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمقاتلين، وظل ذي ثلاث شعب.

كل ما تركه هناك في الأرض الجبلية الوعرة من معارك حاسمة وخاسرة شارك فيها مع رفاق السلاح بفدائية لم يكن ليراه مجددًا كما يراه هذا الأفغاني المغرور الذي انتهت به الحياة بيّاع خردوات في بقالة بمدينة الأرطاوية الصغيرة، وصار يرسله أبناء كفيله العجوز الذي يعمل عنده بقّالاً ليصنع لهم القهوة والكبسة التي عجز عن إتقانها، بعد أن كان يرسل الجنود السوفيت إلى الموت.

يقهقهون ويتندرون على عمامته الكبيرة ولباسه الغريب ولغته التي لا تشبه لغتهم بتحريك مسابحهم إذا فشل في ضبط كمية الهيل والزنجبيل والملح في القهوة والكبسة، ويصفونه بعبارة "الفسقان" سخريّةً منه، فهم لا يرون في بلاده التي جاء منها إلا قطعةً من نار مشتعلة بالحروب والموت والدمار يسكنها رعاة الجمال ذات السنامين.. ومربي البقال ليس لهم نصيب في الحضارة؛ قبائل متحاربة فيما بينها، ولم تتحد كدولة بعد.. قال أحد أبناء كفيله، ويدعى متعبًا، وهو في الصف الخامس: من أين جاء أبي بهذا العملاق الذي يشبه أبطال مسلسلات فولترون والنمر المقنع؟! وما هذا اللبس الغريب الذي يلبسه؟!

ها أنت أيها المعنوه تلقى حتف غرورك، في هذا المكان من العالم، لتبتلعك رماله الذهبية المتحركة.

شكره يعقوب السوداني على تقديم الدعوة له لمشاركته إفطار الصباح، لم يكن لديه موعد مع مخدم، فهو لا يتقن عملاً إلا القتل والسحل وحرق الجثث والاستمتاع بمنظرها وهي تتفحم، كل الذين طرق أبوابهم رفضوا توظيفه؛ سافر إلى الصحراء، وبحث عن عمل، وبعد مجهود ووساطات التحق بمهنة تربية مواشٍ، لكن سرعان ما تخلوا عن خدماته، بعد أن ضيع نصف القطيع؛ كان فظاً غليظ القلب يفتعل المشاكل لأتفه الأسباب، لا يهتم كثيراً بالأغنام التي يعهد بها إليه لرعايتها؛ يتركها لتهميم في الصحراء عرضةً للذئاب والكلاب الضالة، وللباحثين عن حفلات الشواء في موسم اختفاء الطباء وثمار تشبه البطاطا انموت في الصحراء يظل يطلق نظره نحو النجوم، ويطارد تجمعات السحب.

صادف أن تعارك مع أحد السودانين الذي يعمل حمالاً للشعير على شاحنة نصف نقل يملكها كفيhle السعودي، لكن سرعان ما تصالحا، وأصبحا صديقين، يزوران بعضهما بعضاً.. وبعد زيارات ومحادثات ومشاورات قرَّرا معاً ترك هذه البلاد والهرب معاً إلى مدينة أنجمينا في دولة تشاد، ليعملا بالتجارة الحدودية بين السودان وتشاد وإفريقيا الوسطى.. لم يتبقَ كثير من العمر، وهما غير مستعدين لدفن ما تبقى منه تحت هذه الرمال الحارقة التي تنذر بضياع ما تبقى من عمرهم.. وبعد تفكير ومشاورات قاما بتسليم نفسيهما إلى سلطات الجوازات السعودية في المدينة، لتقوم

بترحيلهم إلى السودان، بعد إرسالهم إلى مدينة جدة الساحلية. كانت الخطوة التي أقدموا عليها مجنونةً، لكنهم مضوا فيها حتى نهايتها، ولم يكثر ثوا لعواقبها.

أودعا السجن بمدينة جدة لأسبوعين، بعد أن تم ترحيلهم إليها، قبل إرسالهم إلى السودان.. وفي السجن صادفًا شابًا سودانيًا محكومًا عليه بالترحيل، كان يعمل في تهريب العطور الباريسية والسلاح والصمغ العربي عبر الحدود السودانية التشادية، قبل أن يصاب برصاص قوات الأمن الهجين التي تحرس الحدود، ويفقد يده اليسرى.. واتفقا على أن يلتقيا بمدينة الجنيينة السودانية بعد الخروج من السجن، وعلى ألا يعودا إلى هذه البلاد مرةً أخرى، وليبدأ معًا رحلة تهريب جديدة وتجارة عابرة للحدود والقوانين، وإرسال كل من يعترض طريقهم إلى الجحيم.

الفصل الثاني

خلال العمر

قامت سلطات الجوازات السعودية بترحيل يعقوب السوداني ورفيقه، فهما الاثنان قدما من مدينة واحدة في السودان، وكانت لهما الأحلام نفسها بالشراء الفاحش وتأسيس منزل على طراز فكتوري قديم، فيبوت الخرطوم القديمة ذات المعمار الفكتوري التي تركها الإنجليز خلفهم بعد أن غادروا البلاد ومنحو أهلها استقلالهم كانت تخب ألبابهم، ويسيل عليها لعابهم، وشراء قطعة أرض يزرعونها بالقطن والقمح.. أحلام تراءت لهم -في مجملها- سهلة دائية القطاف، لكنها في حقيقتها سراب ظنوه ماء زمزم، لكنها لقمة في فم أسد جائع.. أحلام اشترك فيها معظم الشباب المهاجرين في طلب القرش الأحمر، الشباب أبناء الفقر الفارين من جحيم بلدانهم، يا لمضيعة الحياة في هذه البلاد! الويل لمن جاء إليها وهو غير مدرك لطبيعة الحياة هنا وصعوباتها ومتطلبات سوق العمل.

إنهما لم يكونا حزينين لإبادهما عن الأراضي المقدسة التي وصلها بعد أن باعا كل ما يملكانه في بلادهم على قِلَّتِهِ، قطعة الأرض التي ورثها يعقوب عن أبيه، وثلاث بقرات سمان فاقع لونها أهداها إليه جده لوالدته يوم ختانه الذي غنت فيه النساء أغنيات من وجدان هذا الشعب وذاكرته، الشعب الذي هو ابن شرعي لأكثر من ثورة خسرها جميعاً لصالح العسكر، وخبرنَ

وعجنَّ وصنعنَ المريسة والكجومروا والعسلية وأم جنقر، ورقص أبوه يومها كعريس في كامل شبابه، عريس يزف إلى عروس بنت عشرين سنةً قمريةً.. أما صديقه، فباع نصف منزله في حي كرتون كسلا بالحاج يوسف بالخرطوم، حتى يتمكن من السفر واللاحاق بركب الهاربين الحالمين بالثراء.

لم يحزنا على تسليمهما أنفسهما وترحيلهما من البلاد، لأنهما لم يكونا يخلصان من ورق الجنة في هذه الأرض، ولا يسامران الجواري الحسان والغلمان، ولم يكونا يتخيران من الفاكهة ألذها وأطيبها.. الجنة التي وعدتهما بها الأيام لم تكن هي جنة ذات ظلال وارفة وحقول نضيفة، بل كانا يرفلان في ليالٍ من العذاب وهما بعيدان عن الأهل والوطن الذي هو نفسه شريك في مضيعتهما وعذاباتهما ونهارات لم تخلُ هي من أسباب ضياعهما تحت شمس محترقة.

كانا كرجال يصارعون كرة اللهب التي تلهب الرمال المتحركة التي ابتلعتهم كثعبان بحجم مضرب البيسبول، وكسرت عظامهم وهشمتها تهشيمًا.. هي رمال تركاها خلفهما، لتبتلع قادمين جدداً حالمين جدداً جاؤوا إليها هاربين من العوز والفقر والثورات والانقلابات العسكرية والندوات السياسية في الجامعات والميادين الشعبية، لتكسر عظامهم كما فعلت معهما.

أخيراً تخلّصا من صلف بعض المخدمين وعنجهيتهم وسخرية

أبنائهم من لونها، من سوء حظهما أنهما لم يعملتا تحت مخدم جيد، كانا يقعان في شرك مخدمين لا إنسانية لهم ولا أخلاق ولا ضمير، يطلبون منهما أعمالاً فوق طاقتهم، ويدفعون لهما رواتب أقل مما اتفقا عليه، وأحياناً لا يدفعون لهم، ولا يستطيعان مقاضاتهم، لعدم امتلاكهما أوراق إقامة.

أما الرجل الثالث الذي صادفاه في السجن، ويدعى خميس الله جابو أبكر، جاء إلى هذه البلاد قبل عامين، وكان يعمل في الاتجار بالمواشي والشعير والبرسيم في بر المدينة المنورة.. ترك أولاده خلفه في السودان في مدينة أم درمان في حي ود نوباوي الشهير: ثلاث فتيات، وصبيين.. وجاءته الرسائل من السودان تترى تخبره بتعثر الأولاد في دراستهم، وفشل البنات في زيجاتهن، وطلاقهن من أزواجهن، فقرّر حينها أن يترك هذه البلاد إلى غير رجعة، ليعود ليصلح ما يمكن إصلاحه، فما أفسده الدهر كثير؛ الدهر الذي غدر به يوم أن قرر السفر وهجران زوجته وأولاده.

مُدّد حبس خميس أسبوعين آخرين، إلى حين تكملة قوائم الدفعة الثانية التي سوف يتم ترحيلها قريباً إلى ميناء بورتسودان.. ودّعهما، وتمنى لهما سلامة الوصول.

تجولاً في العبّارة الواسعة ذات المقاعد الخشبية المبطنة والغرف الفندقية مكيفة الهواء والطوابق المتعددة مدفوعين برغبة في الصراخ بانتصارهما المتوهم على السلطات السعودية ممثلةً

في دوريات الشرطة ورجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى كل المخدمين الذين مروا عليهما، وعلى الغربة نفسها وطاريتها الذي قطعوه للأبد، وحلم مغامرات الثراء الذي دفعهم إلى الهجرة.. الحلم الذي لم يتحقق لهما، الحلم الذي دفناه تحت الرمال والتلال والشعاب عاريًا بلا أكفان يرقد وحيدًا.

لقد عاشا فترةً دونما أوراق تقيهما شر المسائلة القانونية، واستطاعا الهرب من الفخاخ التي تنصبها دوريات الأمن السعودي المسعورة لغير المقيمين المهرين.. السعوديون المنتشرون في الصحراء كالذئاب الجائعة للمال كانوا يعملون على نقل من ليس لديهم أوراق عبر الأودية والشعاب والطرق الجبلية الوعرة مقابل مبلغ مالي كبير، قد يصل إلى ثلاث آلاف ريال سعودي، نظير نقل الفرد الواحد.. لقد تعرّفا على عدد من المهرين الذين يقدمون خدمات مشبوهة للوافدين الجدد إلى هذه البلاد في أثناء تسللها إلى عمق منطقة نجد، حتى جنوب هذه البلاد.

بعد الفراغ من تأدية شعائر العمرة بيت الله الحرام وكعبته، وزيارة قبر رسوله في المدينة المنورة، تجوّلوا في العديد من المدن: القصيم بريدة المجمععة الزلفي الدوادمي خميس مشيط حفر الباطن جازان نجران، مدن يشبه بعضها بعضًا، وتبدو قاسيةً لغير المقيمين، بفضل هؤلاء المهرين الذين كانوا يجدونهم عندما يطلبونهما، دون عناء، فالمال هو مفسدة الإنسان الكبرى ومضيعته

لمن لا يضعه في ميزانه الصحيح.

رست الباخرة ساق النعام العملاقة ذات الأضواء الكاشفة والأبواق التي تشق الصمت في مدينة بورتسودان الساحلية ذات مغيب.. أطلقت صافرتها المزعجة "بوم بوم بوم" إيذاناً بالوصول.. ها هو حوت جديد قد جاء ليتقيأ حمولته من البشر المنفيين من بلاد الرسالة، الضائعين والعائدين بعد سنوات غربة أكلت روحهم وعذبتها، ليموتوا هنا في بلادهم، ويُدفنوا تحت ترابها الأسود البارد بسلام.

فُتحت الأبواب الكبيرة للباخرة، وتراحم الركاب، وتدافعوا على المخارج كتفاً بكتف على قِلَّتْها.. أخذوا يكيلان الشتاء والسباب لأصحاب الحقائق والأمتعة والنساء البدينات.. لم يكن بحوزتهما حقيبة أو نقود، حتى ملابسهما القديمة تخلّصا منها في عرض البحر، وقدّماها قرباناً للخلاص من غربتهما وطعاماً لأسماك البحر المفترسة وهما يسخران من حياتهما هناك في بلاد الملك.. كانا يغتسلان من الغربة وجحيمهما والألم النفسي بتصرفات زوربائية غريبة، كل ما بحوزتهما من حصاد غربة استمرت ثلاث سنوات وبضعة أشهر هو حزمة من الآمال المحطمة المدفونة بلا أكفان ولا رفقة تحت الشمس الحارة، يبكيان الأيام التي أضاعها بين الوديان والشعاب والجبال وهما يطاردان الأغنام والخراف، ويرضعان صغارها

ويهشَّان عليها بعصا فقرهم وعوزهم وضياعهم الذي أخرجهم من ديارهم ورمى بهم في أتون صحراء نجد القاحلة التي لن تحلم بنبي بعد محمد.

شعريعقوب بوخزة في مؤخرة ظهره: آه! كم نقل على هذا العمود الفقري المتيس من أكياس الشعير والقمح! لِمَ لا يوخزه؟! تجاهل آلامه، ومضى يشق طريقه إلى خارج الميناء.

لم تكن مدينة بورتسودان الأم الحنون التي ستربت على أكتافهما وتحضنهما، لقد قابلتهما بوجهها الكالح وماء بحرهما المالح وحزن غربانها على موت قابيل وعويلها المتواصل "غاغ غاغ غاغ".. بحثا بجذ عن "لوكاندا" متواضعة تليق بمُفلسين مثلهما، ليقضيا فيها ليلتهما الأولى في مدينة لا ترحم الغرباء.. كانا يجدان من أصحاب "اللوكاندات" الإجابة نفسها: لا يوجد مكان شاغر بالسعر الذي تريدان دفعه.. بعد عناء وبحث شاق لم يعثرا على مبتغاهما؛ كفاً عن البحث ومشقته، وبعد مشاورات بينهما لم تدم طويلاً قرَّرا سريعاً المبيت في العراء بالقرب من منطقة الكسارة غرب المدينة، وهي منطقة شعبية تكثر فيها الخمارات، ويجوب طرقاتها وأزقتها المجانين والباحثون عن رحلات السناك والعربات التي تنتظر تحميلها بالبضائع إلى الخرطوم ومدني وكسلا والأبيض.. تودَّداً إلى سيدة تبيع الخمور البلدية اسمها جوانق ميدي تسكن عشة

من الكرتون والصفيح المدعم بسيقان أشجار المسكيت، واستطاعا أن يحصلا منها علي زجاجة خمر نصف ممتلئة، بعد أن قاما برهن شال لهما أبيض عليه خطان باللون الأزرق ونقوش في مقدمته.. وبينما الليل يمضي نحو آخره، ومنسوب الزجاجة ينخفض تحت مستوى سطح المزاج، تقرب منهما رجل يلف حول رأسه شالاً أبيض متسخاً بالزيت والشحم، له صوت جَهْوَريٍّ يحاول إخفائه، وطلب منهما بضع قطرات مما يشربان من كحول بلدية، حتى يتمكن من النوم، لأن ما شربه من خمر لم يكف حاجة دمه إلى الكحول الذي أدمنه.. منحاه ما تبقى من الزجاجة عن طيب نفس، وطفقا يشتمان الغربة وأيامها المريرة والحكومة التي رمتها في أحضان دوريات الأمن السعودي والمهربين الذين وضعوهما داخل خزانات مياه الشرب حتى كادا أن يختنقا ويموتا، ودسوهما بين أكياس الشعير.. رمتهم بسياساتها الرعناء وتخلفها عن خلق وظائف تستبقي بها أبناءها في حجرها دون التفريط فيهم، حتي لا يتوهوا في بلاد غير بلادهم وسماء غير سمائهم يجهلون حتى لونها بحثاً عما يسد الرمق ويعيد للإنسان كرامةً فقدتها في بلاده التي تطلوقها الأنهار.

بصقا بحرقه على مهندس فكرة تبديد ثروات البلد في مشروعات التنظيم الوطني الفاشلة، وعلى محاولات الحكومة

تغيير أنظمة دول الجوار عبر أذرع مخابراتها الطويلة، كانت تظن أن تلك الأنظمة لقمة سائغة يسهل التهامها، لكنها بفعلها خسرت كثيرًا من سمعة الدولة ووضعتها في قائمة رعاية الإرهاب.

قال يعقوب لصاحبه وهو يحاوره مخمورًا: كيف يا نادر لهؤلاء المتخلفين أن يقدموا على خطوة تصفية رئيس دولة لها مكانتها واقتصادها القوي؟! هذا أشبه بمواجهة رجال الخليفة عبد الله التعايشي ودورشين لكتشنر العظيم المدعم بالبارود والمدافع الرشاشة والبوارج وبركات ملكته إلیزا! يا لغباء العقول المجنونة التي فقدت صوابها ولم تعد تسيطر على نفسها!

الرجل صاحب الشال هو هدية السماء لهما.. كان يعمل مساعدًا لسائق إحدى الشاحنات السفرية، ويدعى بخيت جار النبي.. وعندما علم أنهما مفلسان تمامًا لا مال لهما ليعودا به إلى الخرطوم التي يطلبان السفر إليها من بعد غربة، وعلم من حديثهما أنهما عائدان من تجربة غربة مريرة فاشلة مطرودين، حمل إليهما سندوتشات من الفول والطعمية وبعض البلح، كان يحتفظ بها في العربة، وقال لهما بخيت وهو يربت على كتف يعقوب: انهضوا لتتناولا العشاء، وبعدها سيكون لنا حديث.. تعشّيا حتى شبعا، ودارت الخمر في الرؤوس بعد أن أفرغت الكؤوس، وبدأت الثرثرة تحت نسيم البحر ورطوبته الخانقة.. وبعد انفضاض السامر وعدهما المساعد بخيت بنقلهما معه في شاحنته إلى

الخرطوم مجاناً غداً صباحاً، ونقل إليهما موافقة السائق بعد أن حدّثه بشأنهما.. ودّعهما على أمل أن يلتقيا في المكان نفسه الذي اتفقوا عليه، ليرتحلا نحو الخرطوم التي افتقداها لسنوات طويلة. كم هي قاسية الخرطوم! تطوقك بذراعيها، وتعتصرك بقوة، حتى تكسر عظامك.. الخرطوم مدينة الإنجليز والشيوعيين والبعثيين والإسلاميين والمصريين والأتراك، مدينة العسكر والطوائف الدينية، مدينة النوبة والطار والرق والكمّان، مدينة الموت والطرب.. لقد اشتاقا إلى التسكع في شوارعها وأزقتها ومطاعمها ومقاهيها وحاناتها وملاطفة جميلات ذات الخلاخل والحجول وزيارة بيوت الغانيات فيها، وما أكثرها في هذا الزمان غير العادل! وهي ترفرف فوقها الرايات ذات الألوان الثلاثة: الأحمر والأصفر والبرتقالي.

الخرطوم، أيتها السمرات الشابة شباباً لا تعتريه كهولة ولا عجز، الغبشاء المعفرة بغبار فصل الخريف، وأرجل الثوار، وضجيج مواقف المواصلات، وصياح الباعة الجائلين: "يرد برد يرد" كل حاجة بألف "ترمس ترمس كبكبي"، وصرير عجلات العربات التي تجرها الحمير والخيول، وعربات الباسطة المنقوعة في السمن.. ليالي ديومها الصاخبة، وديومها منخفضة المباني، وفرق جازها، وحفلاتها الساهرة حتى مطلع الصباح.. الخرطوم التي لا تنام بدون عشاء.

ها نحن قادمان إليك يا لعنة الزمان، لنشاهد ما أنت عليه من
بؤس ودمار، وخوف يعتري إنسانك المقهور بالنار والبارود والدم
والظلم وعذابات الغربة.

ماذا صنعوا بك يا عروس النيل العذراء البكر؟! لقد أضاعوك يا
جنة الرضوان، يا رنة كأس الخمر عند شط النيل الأزرق، يا خلخال
العمر وزمام العروس، تبًّا للدول الفاشلة جميعاً؛ لقد مزقوا سترتك
في الوحل، وتركوك عارية الساقين تستجدين الغرباء حفنةً من قمح
ووقود ودواء وسلاح، أرادوك أن تصبحي غانيةً في زمان تابت فيه
الغانيات عن ممارسة البغاء واخترن لأنفسهن مهناً شريفةً، وعملوا
على ذلك، وحشدوا مُنظِّرِيهم ومُفكِّرِيهم لبناء دولتهم على أنقاضك..
ما أجملك حتى وأنت تلتفحين بهذا الثوب القبيح!

اللعنة عليهم! ما كان ينبغي السماح لهم بالصعود إلى سدة
الحكم، ما كان ينبغي تركهم ليمارسوا عبثهم.. لِمَ لَمْ يعترض أحد
طريقهم؟! لماذا تقاعسوا عن منعهم؟!

الخرطوم التي لا توجد مدينة أجمل منها أو يماثل ليلها ليلها إلا
القضارف أم مريسة مرة، كما يقول عنها لأصدقائه عندما يعود بعد
انتهاء فترة إجازته، وعن حكايات سائقي اللواري والتراتكورات
الزراعية وعمال الحصاد وجز قصب الذرة الفيتاريتا.. القضارف
التي عاش فيها سنواتٍ طوال في حي سلامة البيه، لأن جده لأمه
كان ينحدر من هناك، وكان يتخير مواسم الخريف للذهاب إلى

هناك والعمل "الجنقو" في مزارع السمسم، لتوفير مصروفاته الدراسية السنوية، وكان يتوغل حتى الحمرة، وأحياناً يدخل إلى الحدود الإثيوبية - رغم صغر سنه التي لم تتجاوز الخامسة عشرة - غير مهتم بتحذيرات جدته العجوز التي ترطن رطانة التقراي.

الفصل الثالث

نبوءة "أب طاقية"

بينما الخفير يتجول في المدرسة - بسر واله وعراقيه المتسخين المهترئين التي ضاع لونها من الغسيل المتكرر - كهلوان على مسرح سيرك، بعد الفراغ من إنجاز مهامه اليومية.. لقد قام بقص الأشجار، وشرب صندوق من البرنحي الذي سرقه أحد الطلاب من دكان أبيه، وهي إتاوة يفرضها عليه مقابل الكف عن ضربه في الفصل تحت شجرة النيم العجوزة التي تتوسط المدرسة.. كان تلميذاً غيباً، ولا يهتم بدروسه ولا بنظافة ثيابه، وأظافره كأظافر طير جارح، وأسنانه متسخة برماد السجائر الذي يشربه دون علم أبيه.

غسل الخفير الأزيار، وقام بحرق الأوساخ وإبعادها خارج مبنى المدرسة.. تناهت إلى مسامعه نوبة من الضجيج، فهرع على إثرها كالمجنون الملسوع؛ تتبع مصدر الصوت، حتى توقف عند عتبات الصف الثالث أساس، حيث الصراخ والضجيج، وكأن حرباً طاحنة تدور بين الطلاب، حرب استخدم فيها كل أنواع الشتم والركل والصراخ.. لقد تغييت المعلمة كعادتها، ولم تترك عند المدير عذراً يبرر غيابها، ليجعله يستبدل حصتها بأخرى، لذا ظن أنها قد تنوي استلاف بعض من زمن الحكومة السايب المهدر في أفقه الأشياء.. من الذي يعمل على محاسبتها؟! إذا كان المدير نفسه لم يكن يعطي المدرسة كثير اهتمام، ويتغيب هو نفسه لأيام دون أن يعين أحدهم ليخلفه في غيابها، ويسافر أحياناً

إلى المدينة لقضاء بعض الأيام مع ابنه موظف الحسابات بوزارة الثروة الحيوانية والسمكية، فالدولة نفسها متمثلةً في إدارة التعليم وجيش موجهيها تضرب بمطالباته عرض الحائط الأصم، ها هو "الإسطاف" تسيطر عليه النساء، لذا يكثرن من التغيب لأسباب صحية مقنعة ودونما أسباب.

لقد أصبح وحيداً يجدف في بحر متلاطم الأمواج، ومن فوقه سماء محتقنة بسحب داكنة على أهبة المطر، لم يستطع استبقاء الأساتذة إلى جانبه.. تسربوا جميعاً إلى الحقول، ليعملوا في تنظيف الحشائش وحرقها وتسوية الأرض وغرس الشتول ودس البذور في التربة، وقطع قناديل الذرة وسيقان القصب.. بعض منهم سرقة الأعمال الهامشية في المدينة، فصاروا حمّالين في الأسواق والمواني، وبقّالين ولحّامين وفرّانين، وسماسرة أراضٍ وعربات، وتجار مخدرات، وقوّادين في بيوت الدعارة، وسوّاقين لعربات سُقيا المياه.. وآخرون غادروا البلاد مهاجرين؛ لقد كفروا بالتعليم وبرسالة المعلم السامية وبالحكومة نفسها التي أهملت هذا القطاع الحيوي الحساس.

دخل الخفير الفصل ليخمد ثورة الضجيج.. كان له بنية مصارع وصوت جَهْوَريٍّ وعينان زرقاوان، يحمل عصا خيزران، ويتنعل صباطاً من جلد الماعز المدبوغ المصبوغ باللون الأحمر، ما إن وضع قدمه على عتبة الفصل حتى اتسبدل الضجيج بالصمت

المطبق؛ وقفوا له بإجلال واحترام، وكأنه معلم تخرج في كبرى معاهد المعلمين، ودرس دورات في معهد بخت الرضا لتدريب المعلمين، وهم يرددون: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، في حين أنه لم يقل السلام عليكم.

كان المدير يعهد إليه بسد الثغرات والشواغر من الحصص التي يتهرب منها المدرسون تحت دواعٍ واهية، لأنهم أمنوا العقاب.. أصبح أستاذًا بأمر المدير؛ يدرس العلوم والرياضيات والإنسان والكون والتجويد والفقه والجغرافيا والتاريخ واللغة العربية.. الأمر متروك له ليفعل ما شاء له أن يفعل، ها هي الدنيا تمنحه أكثر مما يستحق.

طلب منهم الجلوس بعبارة فظة:

- اقعدوا، تقعدوا في جهنم - إن شاء الله - يا أولاد الكلب.

وجد نصف إصبع من الطباشير ملقاة على الأرض على مقربة من السبورة، وعبارة بذئنة كتبت على السبورة بخط عريض: أستاذة فلانة ترقد تحت عشب الخلاء وتحت أكوام القصب مع الرجال ومع المدرس فلان ابن فلان.. لم يكن يدرك فحوى العبارة المكتوبة على السبورة؛ لقد خذله جهله بالقراءة والكتابة.. طلب من أحد الطلاب الذين يجلسون في الصفوف الأمامية للفصل أخذ الممحاة وتلميع السبورة، وقبل كل ذلك قراءة العبارة المكتوبة بصوت مسموع، مثيرًا في وجهه تهديدًا:

- اقرا يا ولد يا غشيم ما هو مكتوب في البورد، ووريني
الحاصل شنو.

تلعثم الطالب في القراءة، لكن عصا الخيزران التي لَوَّح بها في وجهه وهو يكرر عليه: اقرا (القر الينفخك)، أجبرته على قراءة العبارة بصورة صحيحة وبالصوت نفسه الذي أمره أن يقرأ به، فار الدم في عروقه، واحمرَّت عيناه، ونفرت عروق يديه ورقبته كالثعابين، وكأن جنياً قد تلبَّسه.. طلب من التلاميذ الكشف عن كاتب العبارة البذيئة، حتي ينجوا بأنفسهم عن المساءلة، ليركهم، ويحاسب المذنب وحده، ويجنبهم العقوبة الجماعية.. وقال لهم في هذه الحصة سنحكي كثيراً من الحكايات التي ستنال إعجابكم؛ هي حكايات أكثر تشويقاً من فاطمة السمحة والعنقاء والغول الذي ينام عامًا كاملاً ويصحو عامًا كاملاً، وأكثر إثارة من الرمة وحارسيها، ومن شليل الذي أكله الدودو.. لم يتفوه أحد ببنت شفة، كانوا جميعاً خائفين جداً ومرعوبين؛ تكاد تسمع خفقات قلوبهم من شدة الرعب.. عقاباً لهم جلدَ الفصل بأكمله، حتى حسن لم تشفع له السجائر التي يسرقها من أبيه، الكل نال نصيبه من الجلد ثلاث جلدات، ووبخهم على فعلتهم غير الأخلاقية، وهددهم باطلاع أولياء أمورهم على ما اقترفوه من شناعة وقلة أدب يستحقون عليها الشنق.. وقال موجهاً سؤاله لهم: من منكم الذي رآها ترقد تحت أحدهم وتتلوى من اللذة وتصرخ؟ هل

سمعها أحدهم تصرخ يا أولاد الحرام؟ كان يسأل بخبث، ويقهقه، وفي نيته أن يقول أحدهم أنا سمعتها ورأيته، حتى يستغله ليحكي له كل التفاصيل عنها وعن غيرها: ربما شاهد كثيراتٍ منهن ينمن مع الرجال تحت أكوام سيقان القصب.

أخذ نصف إصبع الطبخشورة الملقاة على الأرض، وخط خطين غير متوازيين في منتصف السبورة.. لقد خذله جهله بالكتابة والقراءة للمرة الثانية، وحز في نفسه تركه القراءة والكتابة وهروبه من الكتاب، والاكتفاء برعاية أغنام جده لأبيه الذي كان يريد له الانتظام في الكتاب أسوة بأقرانه من أبناء القرية الحفاة ممزقي الثياب.

التفت إلى الطلاب معلناً بداية الحصّة.. حدّثهم في بدايتها عن الجنة والنار وكيف هبط آدم على الأرض، وكيف وجد حواء، كمدخل وفق رؤيته وفلسفته المستمدة من أوهامه، وقال إن آدم هو أبونا الذي جئنا من نسله كلنا، وعندما هبط على الأرض كان جائعاً، وأخذ يبحث أسبوعين في الصحراء والغابات وشواطئ البحار عن شجرة زيتون، وأجهده البحث، حتى وصل طور سيناء وفلسطين، وهناك وجد كثيراً من الزيتون الأخضر والأسود والماء الصافي، وحواء كانت في أرض الهند تزرع الورود والقمح.. شد آدم الرحال إليها، وكان راغباً في الوصول قبل مغيب شمس اليوم الأول لرحيله.

وحدّثهم عن الثورة المهدية التي خرجت من جزيرة لبب في

الشمال وفيافي كردفان في الغرب، وانتهت بقتل الخليفة، وسقوط خرطوم الفرنجة والترك والمصريين بعد أن حاصرها الدراويش بحرابهم وجباتهم المرقعة شهراً كاملاً، ومنعوا عنها الإمداد، وموت الضابط "غردونهم" مسحولاً على عتبات قصره الكبير متعدد الطوابق.. قال لهم بفخر إن جده كان مع الدراويش لحظة فصل رأس "غردون"، وكان ممسكاً بخدّه الأمد ولحيته الحليقة، حتى تم فصل رأسه عن جسده، ومن حُسن حظه أنه التقط غليونه الذي سقط منه على الأرض بعد أن وضع أحدهم رأسه في مخلايته، وظل محتفظاً بالغليون حتى يوم وفاته، وكتب في وصيته أن يدفن الغليون معه، مع مقتنياته الأخرى من إبريق وفروة أهداها له محمد أحمد المهدي قبل أن يموت، فلم ينفذ أبناؤه وصيته الغربية بعد أن تشاوروا فيها.

لم يكن الخفير يحب مهدي الله، كان يكرهه، ويكره ثورته بشدة، وعمد إلى تشويهها وتشويه أمرائها وقاداتها؛ شتمهم فرداً فرداً، ولفَّق لهم التهم دونما أن يخجل من نفسه.. قال لهم إن عبد القادر ود حبوبة لم يكن بطلاً، وإنما كان مزارعاً في تفتيش ميجر (٢٤) منطقة القرشي، وأراد المفتش الإنجليزي أن ينتزع منه أرضه الزراعية بحجة عدم تنظيف الحشائش عن مسطبة القطن وإهمال المياه، فغضب عبد القادر منه، وضربه على رأسه حتى سقط عن حصانه، وسأل منه الدم.

حكى لهم عن وقوع جده لأبيه في الأسر عندما كان يذهب إلى مصر للتجارة، وعن سلب جنود الخليفة ونهبهم بضاعته، الجهادية الذين كانوا هائمين في صحراء توشكى ووادي حلفا وعبري والسكوت ودنقلا بعد سحقهم وهزيمتهم هناك وتشتتهم، وعن جلده في سوق برير أمام أعين الناس رجالاً ونساءً، لأنه رفض تسليمها لهم طواعيةً.

أخبرهم عن أم درمان غرب النيل مدينة الثورة والجلود والجنود، وعن خليفتها وأسيادها وخدمها وغوانبها وخماراتها وهنودها وشوامها وأقباطها، وعن بيت خليفتها المبني من الطين، وعن أسرار غرفه الكثيرة؛ البيت الذي يتمنى هدمه وتسويته بالأرض.

وحدثهم عن الجنود الذين ماتوا في كرري بالآلاف وهم يدافعون عن خليفة أراد لهم أن ينتحروا تحت فوهات بنادق تقذف موتاً بلا رحمة، وعن المدينة يوم كانت تحت رحمة مدافع بوارج جيش الملكة صاحبة الأرض من الشمس إلى الشمس، وعن قصر الحاكم في الخرطوم ذي الطوابق المتعددة عند ضفة النيل الأزرق. كان متعاطفاً مع الجنرال "غردون"، ويرى أنه كان يرفل في ثوب قديس، لم يكن مجرد ضابط يشرب الخمر ويقرأ الإنجيل، "غردون" الذي لم ير أنه يستحق أن يموت في هذا البلد الإفريقي غير المتحضر، والذي جاء إليه ليضيف نصراً جيداً في سجل

انتصاراته الكثيرة، وتحسّر على عدم وصول فرق نجده في الوقت المناسب، واتهم الإنجليز بالتسبب في موته.

ويكنّ احتراماً شديداً لـ "كتشنر باشا"، لأنه أفنى الثورة المهدية، ودفن مقاتليها في صحراء كرري دونما أكفان تحت سنابك خيولهم، وجعل الغربان تحلق فوق جثثهم، وطاردهم حتى سهول كردفان ودارفور.

وقال إن نبوءة جده مخيفة، وهي أن الثورة الملعونة هذه لن تموت، ستظل ناراً تحت الرماد، وسيأتي فارس ليعثها من جديد بعد طول خمد؛ سيقتل الناس بلا عدد، وستجري الدماء كماء النيل الذي لا يتوقف عن الجريان، ولن يحارب غزاة جاؤوا من خلف البحار، سيقتل بني جلدته، وسيتحالف مع الغزاة القدامى الذين حاربوهم في الماضي، سيجوع الناس، ويموتون من البرد، وسيتشردون في الصحراء والغابات وفي بلاد الله.

إنها نبوءة سمعها عن "أب طاقة" ولا دخل لجده فيها، لكنه قام ينسبها إليه حتى يبدو جده ولياً من الأولياء، أو رجلاً صالحاً، ويُبعد عنه ما أثير حول مغامراته النسائية.

وقبل أن يُنهي الخفير ما بدأه من حديث وعدهم في الحصّة القادمة بحكاية "الزبير باشا رحمة" تاجر الرقيق الشهير الذي كان يطارد الشبان في القرى، ليقبض عليهم، ويبيعهم في أسواق أوروبا وأمريكا.. وقال إنه وصل حتى قريته مع جنوده، وشاهده

بعيني رأسه، لكنه لم يقبض على أحد من الرجال في القرية؛ جاء يطارد شاباً من الجنوب فرُّوا من معسكره في فشودة، وبعد تتبعه أخبارهم قالوا له إنهم موجودون بقريتنا تحت سيقان القصب.. ووعدهم أيضاً بزيارة حقل أحد كبار المزارعين في القرية، ليُطلعهم على مراحل استنبات البذور وعمليات الحصاد، وليعلمهم كيف يساعدون آباءهم في الحقول.

لقد انتهى الوقت المحدد للحصة، وخرج من الفصل مزهواً بصنيعه وبنفسه.. صادفه المدير وهو خارج من الفصل عند شجرة النيم، ربت على كتفه، ووعدته بترقيته درجةً أو درجتين في السنة القادمة، إكراماً لمجهوداته الجبارة في خدمة العملية التعليمية وتهذئة التلاميذ والحفاظ على النظام والانضباط والسلام الوظيفي.. شعور ما بالعظمة ظل ملازماً له أياماً، كلما خرج من فصل.

الفصل الرابع

مراقبة النساء

لقد تغيبت المعلمة التي يُعهد إليها بتدريس مادة الرياضيات والإنسان والكون يوماً آخر.. في هذه المرة لم تشأ أن تغيب دونما عذر قبيح؛ يبدو أنها شعرت بالخجل من نفسها، فهاتفت المدير صبيحة اليوم الدراسي معربة عن عميق أسفها لعدم تمكنها من الحضور لتأدية واجباتها تجاه طلابها، ورجت أن يمنحها إذناً بالتغيب أسبوعين كاملين، لأنها مريضة بالمalaria والتيفويد حسب زعمها، لكنها في حقيقة الأمر كانت تختلق الأسباب والأعذار الواهية لتغيبها.

قالت في نفسها: لِمَ لا تغيب عن الحضور؟! لطالما لا يحاسبها أحد، ولا يجروء أحد على مواجهتها كائنًا من كان، حتى الموجه رجل الدولة ومكاتب تعليمها العنيد صارم القسما بات لا يأتي إلا مرة واحدة في العام، فيقيمون له الولائم، فيأكل حتى يشعر بالتخمة متناسياً دوره في مراقبة المعلمين وتوجيههم وتقديم النصح لهم.

بلدٌ سائبٌ...!

هذه المرة تغيبت لتصنع عجينة الذرة المشبعة بعطور الفلير دمور وسوار باريس وبنات السودان والبسكويت والكعك والغريبة، لابنتها التي ستضع مولوداً جديداً، في الأيام القادمة.

لم يكثر المدير لتغييرها هي أو غيرها من المتغيرات عن الواجب المقدس في جهاز الدولة، فهو لا يبالي لانهايار التعليم برمته، ولا تهمة جودته ولا مستقبل الطلاب ولا ضياعهم، فكل ما كان يعنيه من ممارسته عمله في الإدارة هو أن يجلس في مكتبه الذي يكتظ بالمقاعد الخشبية المتراسة في نسق جميل خلف منضدة كبيرة عقلت أعلاها صورة السيد الرئيس قائد ثورة الخامس من نوفمبر العظيمة وهو يفتح الدوة المدرسية العاشرة. يجلس المدير مع حافظة قهوة ينتظر راتبه آخر الشهر، وهمُّه ألا يصدر عن الأطفال سحابة من الضجيج تمطر فوق رؤوسهم سهاً تصيبهم بالصداع والضجر.. لقد كان البديل جاهزاً للإخماد ثورة الأطفال وتبديد وقتهم في الهراء الذي يدمنه الخفير، وتشهد له القرية كلها بإتقانه، فن الحكاية وأساليب التشويق، وكأنه ابنٌ من بطن شهرزاد.

إنه الخفير ود مكّي الأزرق، لا يمانع في الذهاب إلى الفصل أكثر من مرة في اليوم الدراسي، ليلجم الطلاب بأحجار كبيرة من الحكايات، ويحكى لهم حكاياته الغرائبية عن عالمه الخرائي المجنون الذي يعيشه.. لم يكن يتقيد بكون هؤلاء التلاميذ صغاراً، ولا يمكنهم أن يستوعبوا بعض القصص التي لا يفهمها إلا المراهقون والناضجون.. حكى لهم ذات يوم تغيب فيه معلمة الصف عن غانية تدعى حمراء أم شامة؛ سميت بهذا الاسم لأن

لها شامة كبيرة سوداء ترقد على خدها الأيمن، كانت تراوده وتلاعبه وترسل إليه الخطابات سرّاً، وهامت به عشقاً، وبوسامته التي افتتنت بها نساء القرية والمدينة عندما زارها يومين وهو يرافقه أباه أزرق المريض بالتيفويد وتضخم الطحال، وأوضح لهم أن المرأة التي تنحدر من قرية خور العشر التي تبعد مسافة عشرة أميال من قريته كانت تقطعها رجلاها مشياً، تزرع خطواتها - في الغبار والظلام والمطر والشتاء والصيف والرعْد - حافية غير مبالية بالأشواك والحسكيت والرمضاء وأشجار المسكيت ولبن أشجار العشر (الذي يسبب العمى) والكلاب الضالة والذئاب والسكرارى الباحثين عن ممارسة الجنس.

كانت المرأة تخرج باكراً قبل أن تخرج الشمس من جراب مستقرها، تلف حول خصرها ثوباً من التوتل يبرز تحته قميص من الجورسي، وأحياناً لا تتعل سباطاً؛ تنتظره عند محطة القطار القديمة المهجورة التي تقع شمال القرية، ليتبادلا النظرات فقط، وأحياناً تلقي عليه التحية، وتتحنس بيدها الخشنة المعروقة كف يده الناعمة عند المصافحة، ثم تعود أدراجها سالكة الطريق الشائكة نفسها وهي تغني: "القميص جورسي، والفانيلية بجوة، حرام عليك بالنسيت الخوة"، تحلق فوق السحاب على أجنحة من ريش النعام، لتصل إلى السماء السابعة البعيدة بروح مراحة تخلو من الكدر، فاردةً ثوبها وذراعيها.

دخل الخفير ود مكى الفصل، وكالعادة كان الضجيج يعلو
 غيمة من نار تتمدد ألسنتها لتحرق المدرسة كلها.. انخفض رتمه
 بدخوله؛ كانوا يخشونه كشبح قادم من أعماق الظلام، قادر على
 منع الهواء عنهم، له قبضة فولاذية تدك العنق وتخرج العيون من
 محاجرها.

لقد حكى لهم ذات يوم عن صرعه أسدًا تسلل من الغابة
 المجاورة إلى القرية، وأحدث ذعرًا للنساء والأطفال، تصدى له
 بكل حزم، وقام بذبحه بسكينه التي يحملها على ذراعه ولا تفارقه
 حتى عندما يهرع للنوم.. وعن الثور الهائج الذي أمسكه من قرونيه،
 وأركعه على رجليه، وصفعه على رأسه، فخرّ فاقدًا القوى يشخر،
 وأخرج زبدًا أبيض من فمه.. وعن الرجال الثلاثة الذين أرادوا أن
 يسرقوه، وكمنوا له بالقرب من خور العشر، فقاومهم حتى صرعه
 الواحد تلو الآخر.

شق فراغ الفصل نصفين بعصاه الخيزران المدهنة بالسمن
 البلدي، والتي يحملها معه على الدوام كحمله سكينه، حتى بات
 يطلق عليه في القرية "أب سكين".. اضطكّت أسنان التلاميذ،
 ومرغوا مؤخراتهم في المقاعد ذات المسامير الناتئة، واحتضنوا
 الأدراج، وخفضوا رؤوسهم، وربما تغوط بعضهم ذعرًا، وشعروا به
 باردًا تحت سراويلهم.. كان مخمورًا، وعينه ترمي بشرر، يرمقهم
 بها بين الحين والآخر.. أشار إلى أحد الطلاب بالقيام، كان سرواله

مبلاً، وكتلة من الخراء تتدلى من بين بنطاله، وجيش من الذباب يتبعه كظله، ولا يكاد يفارقه.. لم يستطع بقية التلاميذ الضحك على زميلهم الذي فعلها على نفسه خوفاً، وادخروا ضحكهم وتندرهم لما بعد ذهاب هذا الجحيم الذي يدعى ود مكى الخفير.

سأل ود مكى مخاطباً الطالب بعد أن طلب منه الوقوف بالقرب من النافذة، حتى لا تصل إليه رائحة براز نتنة: هل جلبت الحطب من الغابة لأبيك أيها الأبله ذو الرأس الكبير الذي يشبه ثمرة اليقطين؟ أجاب التلميذ بالنفي وهو يرتجف؛ صفعه على خده، وانهال عليه بوابل من الشتائم واصفاً إياه بالمستهتر البليد الذي يقضي وقته في مراقبة النساء وهن يضعن الدهن على رؤوسهن، ويمسدن سيقانهم بعجنة السكر، ليتنزعن الشعر منها ومن عاناتهن وإبطهن.. هنا ضحك أحدهم؛ لم يكن في مقدمة الصف، لكن لم يعره ود مكى التفاته.

وضع يده في فراغ جيب عراقيه، وأشار إلى طالب آخر يدعى عوض، أمراً إياه أن يتلو على مسامع الطلاب الآيات الأخيرة من سورة البقرة.. دافع الطالب عن عدم حفظه السورة بأنها غير مقررة عليهم في الصف الثالث الابتدائي.. وصفه بالكفر والزندقة والشيوعية، وشم والدته جازماً أنها لا تصلي أوقاتها ولا تتطهر من الطمث.

قال الخفير موجهًا حديثه للطالب: أيها الأبله، كيف تحفظ سورة البقرة والأحاديث النبوية ووالدك يقضي سحابة يومه في لعب القمار في الصحراء مع الغجر والحلب وأولاد حلة فوق الصعاليك سراقين البهائم، وفي تعقب مؤخرات الغانيات القادמות من حلة الكثر وود قليع، وبائعات العطور البلدية والبخور والأطعمة والشاي؟! بكى الطفل ساعتها بحرقة، وشعر بمغص شديد في معدته؛ أنقذه مما حل به -من كرب عظيم- صوت الجرس الذي أعلن انتهاء وقت الحصّة.

الجرس الذي يشبه صوته رنين كاتدرائية جسر المك نمر، والتي مر بها وهو صغير عندما اصطحبه والده إلى الطبيب في المدينة، لمعاينته عندما كان يشكو من حكة الجلد وبثور الحانكلو التي غطت جسده بشكل مخيف جعل أمه تفزع وتحمله إلى شيوخ القرية وتدعك جسده بطين البنية بعد مزجه بالماء، فكان يقول عن إصابته بالهانكلو وذهابه إلى المدينة للعلاج: قضيت فيها ثلاثة أيام، وزرت كل معالمها الميادين والأسواق والكنائس والجوامع وحديقة الحيوان والمتحف القومي، ورأيت الآثار وقصر الحاكم ومقابر المسيحيين والمتحف العسكري.

قبل أن يخرج من الفصل أطلّ -من النافذة التي سقطت بفعل الهواء الذي ضرب القرية ليلة أمس- شبح رجل قصير له أسنان مصفرة وشعر كثيف مبيض يقهقه على الدوام بصوت مرتفع،

ويشير بإصبعه السبابة في وجه ود مكى ساخرًا منه.. صاح الطلاب: "عم أب طاقية" جاء، "أب طاقية" جاء.. قال ود مكى لنفسه: من أين أتى هذا المعتوه الذي لا يخجل من شتم أي أحد في هذه الدنيا مهما كبر مقامه ولا يستطيع أحد إيقافه؟! أنا أكره وجوده في أي مكان يحل به ضيفًا ثقيلًا؛ إنه ما جاء إلا للنيل مني، لا أفهم لماذا يكرهني هذا العجوز؟!

صرخ "أب طاقية" في وجه الخفير: "نحن جينا وكية للماينا"، وقهقهه بذات الصوت المسموع، وأتبع قهقهته بعبارة: "في الدرجة الكم يا أستاذ يا مناضل يا شريف؟ وشغال حصه شنو؟ بالله، جغرافيا ولأ تاريخ ولأ رياضيات؟! ومتى نالت هذه البلاد حريتها من الخواجات يا حليل نميري؟! تقدر تقول لي أب عاج حَكَم كم سنة يا مطرطش؟! وتقدر تعد لحد كم: عشرة عشرين ثلاثين أربعين؟! الخفراء بقوا مدرسين، آخر زمن" .. وتوجّه ناحية الطلاب قائلاً: "الترابة دي في خشم أمهاتكم الراجياتنكم".

"أب طاقية" الحفيان المبروك لا يعرف أحد تاريخ ميلاد له، ولا من أين جاءت به أمه.. يُقال إن جده هبط القرية يوم أن جاء الجهادية بحثًا عما يؤكل، وكانوا جائعين جدًا ومهزومين؛ تفرقوا في القرى بلا وجهة يقتلون وينهبون ويبيعون النساء الجميلات في سوق الرقيق، جاؤوا يصحبون معهم بعض العائلات، أخافوا الناس بهيئتهم المغبرة، عليهم عرايق رثة

مِرْقَعَةٌ يَنْحَدِرُ تَحْتَهَا سُرُوَالٌ قَصِيرٌ وَشَعْرٌ أَشْعَثُ تَبْدُو آثَارُ الْوَدَكِ ظَاهِرَةً عَلَيْهِ، يَتَتَلَعَلُّونَ حِذَاءَ "شَدَّةٍ" مِنَ الْبِلَاسْتِكِ ذَاتَ لَوْنٍ أَسْوَدَ فَاحِمٍ، وَيَرْفَعُونَ الْحَرَابَ وَالسِّيُوفَ وَالنِّبَالَ فِي وَجْهِ كُلِّ صَاحِبِ دُكَّانٍ، نَبْشُوا الْمَطَامِيرَ، وَأَخْرَجُوا مِنْهَا الذَّرَّةَ وَالْدُخْنَ، وَحَمَلُوهُمَا بِالْجَمَالِ، دَخَلُوا غُرْفَ الْمَعِيشَةِ، وَشَرَبُوا الْعَجِينَ الْمَخْمَرَ فِي "الْتِيَارَاتِ"، وَأَمَرُوا النِّسَاءَ بِصَنْعِ الْعَصِيدَةِ.. ذَهَبُوا إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى، وَتَرْكُوهُ رَفَقَةً جَدُّهُ وَأُمُّهُ الْعَجُوزَ الَّتِي كَانَتْ تَعِيقُ حَرَكَتَهُمْ، فَهِيَ لَا نَفْعَ مِنْهَا.. يَوْمَهَا بَكَتْ حَتَّى أَسْوَدَّ وَجْهَهَا، وَغَامَتْ رُوحَهَا، لَكِنَّمَا لَمْ تَسْتَسَلِمَ لِلْبَكَاءِ، وَذَهَبَتْ إِلَى "وَدَبْكِرِيكِ أَبِ شَنْبٍ" شَيْخِ الْقَرْيَةِ وَعَمَدَتَهَا، فَمِنْحَهَا أَرْضًا بَنَتْ عَلَيْهَا بَيْتَهَا، وَبِلَادًا تَزْرَعُهَا.

كَانَتْ "أُمُّ أَبِ طَاقِيَةِ" امْرَأَةً قَوِيَّةً عَلَى عَجْزِهَا؛ تَعُوسُ الْآبَرِي الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ وَالْكَسْرَةَ، وَتَخْدُمُ فِي بَيْتِ شَيْخِ الْقَرْيَةِ النُّورِ وَدِ ابْنِ كَرِيكِ أَبِ شَنْبٍ، وَتَدُقُّ الرِّيحَةَ فِي الْأَفْرَاحِ، وَتَصْنَعُ الدَّلَكَةَ وَالبُخُورَ وَحَلَاوَةَ النِّسْوَانِ، وَتَزِينُ الْعُرُوسَ، وَتَعْلَمُهَا الرِّقَصَ، وَتَطْبُبُ الْكَسُورَ، وَتَدَاوِي مَغْصَ النِّسَاءِ بِطِينَةِ وَدِ الطَّرِيفِيِّ، وَتَخْرُجُ أَسْنَانَ الثُّعْبَانِ مِنَ الْجِلْدِ بَعْدَ دَهْنِهَا بِمَسْحُوقِ حَجَرِ وَدِ حَسُونَةِ، وَتَغْنِي أَعْغِيَاتٍ غَرِيبَةً فِي الْأَفْرَاحِ: "اللَّهُ لِي مِنْ دَكْتُورِ عَصَامِ إِدَانِي عِلَاجَ الصَّمَامِ، وَبَقِيَتْ تَمَامُ، اللَّهُ لِي مِنْ دَكْتُورِ لُؤْيِ الْكَشْفِ عَلَيَّ، لِقَانِي صَغِيرَةً، وَحَنَ عَلَيَّ"، أَعْغِيَاتُ ظِلِّ الْأَطْفَالِ يَرُدُّونَهَا كَلِمًا

مرت بميدان لعبهم تجر عصا لها تحد بها من ثورة ابنها الذي
يثور عليهم غاضباً من ترديد الصبية لأغاني أمه، فيضرب الأرض
برجليه، ويركل الهواء، ويشد قميصه حتى يكاد يمزقه، لكنها كانت
تحول بينه وبينهم.

الفصل الخامس

نصف مغنية

ها هو الخفير، أستاذ علم إخماد ثورة الضجيج وفلسفة الصمت في المدرسة، يقف بالفعل أمامهم للمرة الألف بعد المائة كجبل كرري الذي يناطح بهامته سحاب المدينة، الجبل المغروسة جذوره في أعماق صحراء أم درمان الشمالية التي ارتوت من دماء فرسان جيش الخليفة.. كان للخفير من هيئته نصيب كما يتوهم، فكم مرة تباهى بذلك أمامهم وهو يرفع رأسه شامخاً نحو السقف المصنوع من جريد النخل وعيدان أشجار الدوم! يقف بهندامه غير المغسول جيداً، والذي تنتشر فيه بقع بألوان مختلفة تبدو في ظاهرها كزحمة من أعلام دول حوض بحر الكاريبي، يحمل عصاه المنزوعة من شجرة خيزران نمت في فناء المدرسة، بروز، دهنها جيداً بسمن الماعز البلدي، كغجري أتى للتو من رحلة في جبال بلاد القرميص والقرنفل تنقل بين مدنها وقراها استمرت زهاء عامين باحثاً عن رزقه في حواريتها وأزقتها وأسواقها ومهرجاناتها الموسمية والصيفية وليالي سمرها، يقيم مهرجاناتاً لألعاب السيرك والخدع البصرية، يصهر الرصاص في قوالب لها أشكال ديناصورات وأسماك قرش وتمائيل لأجداد قضوا في الحروب الأهلية التي طمرت فيها البلاد الآلاف من أبنائها وبناتها تحت ترابها الأسود، متزلفاً لجيوب الزبائن بسرد بطولاتهم الوهمية وبطولاته هو وأجداده فارضاً أسماء نبلاء وأعيان وقادة لم

يكونوا من بين الذين شاركوا في الحرب، يطرق الحديد مستعيناً بنيران الكير، مجتهداً في صنع أدوات الزراعة والأسلحة البيضاء وموازن البقالين، يبيعها لمواطني القرى التي ينزل بها.

ها هو الخفير يتبدى أمام ناظرهم كرفيق موسى النبي وهو يشمر عن ساعديه القويتين ليصلح حال جدار الغلامين اليتيمين الذي يريد أن ينقض دونما أن يتخذ عليه أجراً.. شرع الخفير في تدريس حصّة الجغرافيا التي تخلف عنها مدرستها لسبب غير معلوم.

المدير نفسه لا يعلم لِمَ تخلف الأستاذ عن الحضور، ولا يريد أن يعلم، فالدولة ممثلة في وزارة التعليم لم تعد ترسل لهم المرتبات في موعدها بانتظام، وتطالبهم بشراء الكتب والدفاتر والأقلام والطباشير من السوق، وهم بحاجة إلى إجلال الطلاب بعد أن تحطم كثير من المقاعد بفعل الزمن، لكنها صماء كهبل لا يستجيب لمن يدعونه لمدهم بالبركات.. لماذا يقيم الدنيا ويقعدها لغياب أستاذ له ألف حق وألف عذر في البحث عن رزقه في مكان آخر يحترم آدميته وإنسانيته ولا يعامله كحيوان يدب على الأرض؟! وبأي وجه حق سيحاسبه على ما بدر منه وهو لم يدفع له راتبه منذ ثلاثة أشهر؟! هي ليست أول مرة، لكنها المرة الألف التي يتخلف فيها أحد الأساتذة لأسباب يجهلها.

يجلس الخفير في كرسيه المصنوع من الحديد المدعم بالخشب وحبال من البلاستيك الناعم، يدخن بشراهة سجائر البرنحي "أبو

كأس"، ويرمي بالإعقاب في وجه الطلاب الذين يرسلهم في مشاوير تخصه وحده، أحياناً يرسل أحدهم إلى حلة الكتر لجلب السجائر والعسلية، وإلى سوق السمك والخضار والكجيك، ولجلب الموليتة والفسيوخ و"الأتي" من الجزائر.. بدأ الدرس مستعيناً بحكاياته الغرائبية، ضاحاً مزيداً من أخبار العالم السفلي للمدينة وساكني البيوت المهجورة سيئة السمعة التي يخشى أهالي المدينة المحترمون المرور بجانبها، لما يصدر عنها من أصوات غريبة لم يعهدها، وحفلات عرس تقام في ليالي الصيف.

ويحكي عن الفتاة ذات الوجه المبهج والعينين السوداوين والحواجب الكثيفة، والتي تغني عندما يكتمل القمر بدرًا في ليالي الصيف ذات النسمات المنعشة مستعينةً بدلوكة صنعت من الطين وجلد البقر، ويقف خلفها صبيان وسيمون يرتدون عرايق ملونة، لهم أصوات نسائية، يضعون علي رقابهم سلاسل وحلقان في آذانهم، وعلى أصابع أيديهم ختم من معدن الفضة كبيرة الحجم، يرددون ما تغني من أغنيات سائلة مائعة: "يا قلبي الطار فر فوق في السماء من جنون الهوى.. الله لي من ليمون الجنان البسقيهو بدمي".

ويحكي عن صوتها كيف كان مترعًا بالجمال والألفة، يسحر سامعيه، ويجذبهم كأنه لمسة ملائكية تهبط على محارة الأذن من السماء السابعة، فتصيب الدواخل بالحبور والسرور والإغماء! صوت يجعل كل الذين يمرون من هناك يهتزون طربًا، ويفرقعون

أصابهم في الهواء، ويصيحون: "أبشري أبشري يا السمحة أم زمام" طالبين المزيد من الغناء والرقص، لينغمسوا في طرب لا حد له.

هي لم تكن مجرد فتاة تجيد الغناء، وتهز وسطها رقصاً فحسب، بل كانت تؤدي مهام أخرى -عندما يهبط الليل ويفرش ستائره على الكون وتشتد النجوم توهجاً وتنام القرية- لمن يدفع أكثر، ولأعيان البلد وضيوفهم الذين ينزلون عليهم.. كانت نصف بغي، ونصف فنانة.

وتطرق في حديثه إلى أمراء الحرب المتعطشين للدماء، والذين ينشطون في القرى البعيدة في حدود البلاد مع دول الجوار، ومهاجمتهم المواطنين، وسلبهم أموالهم وقطاعانهم وحصائل بساينهم وحقولهم، وحرق بيوتهم، والتبول على رؤوس من يقع في الأسر منهم، واقتياد فتياتهم الصغيرات، فالمرأة عندهم إنسان بلا قيمة تذكر، والأخيرات لا يُعيدونهنَّ إلى الديار إلا وهنَّ يدفعنَّ بطونهنَّ أمامهنَّ.. وإلى الحكومة وكيف عملت على تجنيد كثير من هؤلاء العبيثين الرعاع الذين لا أخلاق لهم ولا دين ولا وطن يتمون إليه، لتضرب بهم معارضيهما، وصحفييهما، لتجعل حناجرهم تحت رحمة قبضاتهم الفولاذية، كما فعلت مع يعقوب الفتى الخجول الذي تبدل إلى وحش كاسر، هرب من أبيه الذي كان يريد له أن يعمل معه في السوق حلاًقاً للحمير وصانعاً لإكسسواراتها

من سروج وبرادع ولجامات، هرب إلى أفغانستان، وخاض حرباً ضد السوفييت، ومنها ذهب إلى مدن الملح، ليعمل في صحرائها راعياً للأغنام وحملاً أكياس الشعير.

يعقوب الذي كان يدرس في مدرسة القرية، وتمرد على التعليم وعلي الدولة وعلى أهله وعلى أمه التي كانت تعمل ماشطة للنساء وصانعة للبخور قبل أن تموت حزناً عليه وعلى شبابه الضائع.. وبعد عودته من أرض نجد التي غادرها مطروداً رحل إلى البادية، وتودّد إلى قطاع الطرق وتجار الجمال المهربة والسلاح، وسافر خارج السودان، وعمل بتجارة البنقوش والشاشبندي والصمغ العربي والقهوة مع أعوان له صادف أن تعرف عليهم في سجون غربته.

يعقوب الذي غادر المدرسة بعد سماعه كثيراً من حكايات الخفير التي حفّزته للعب دور البطولة، لم يُردّ لنفسه إلا ذاك البطل الخارق الذي تعشقه النساء، وإن لم يفعلن سيختطفهنّ الفارس الذي لا يقف في طريقه أحد.. هي حكايات عن عالم غريب مجنون تسيطر عليه قوى الشر قتلاً وسحلاً واغتصاباً ودماراً باسم الله والسلام والديمقراطية والليبرالية والأمن من الخوف، باسم حسم التمرد والعودة إلى حظيرة الوطن.. عالم من المهمشين المنسيين المضيّعين في أقصى البلاد، الذين عليهم أن يثوروا ضدها لانتزاع حقوقهم التي سلبها جلالة المدينة، فامتصوا دم

الشعب، وتركوا عروقه فارغةً تتمدد على أطرافه كجبال من سعف جافتها الماء.. هكذا صوّر لهم الخفير الحياة التي تنتظرهم.. آمن يعقوب بهذا الهراء، فصار يدعو إلى سحق جيش الدولة وتفكيكه على أسس هو نفسه لا يؤمن بجدواها.

بدأ يضخُّ في عقولهم الغضة مثل هذه الحكايات من الصفوف الأولى حتى تخرجوا في المدرسة، وتوزعوا بين الجامعات ومعاهد التعليم التقني والزراعي.. وبعض منهم انضم إلى رهط من الفاسدين الذين يتاجرون في الحشيش والحبوب، ويقتلون مقابل المال.. وبعض منهم التحق بجنرالات الشر جنديًا، كحال نادر الذي ترك قاعات الدرس بعد أن ضبط متحرشًا بإحدى الفراشات اللاتي يعملن في مدرسة البنات بالقرية، فهرب إلى الغابة المجاورة للمدرسة بعد أن تسلق سور المدرسة متجنبًا اللعنات والهراوات التي صبَّها عليه كل من شهد الواقعة، ليهرب بفعلته مستعينًا بسيقانه الطويلة ورثتيه الواسعتين.. مكث في الغابة ثلاثة أيام قبل أن يغادرها ويصير جنديًا في ميليشيا لا تدق في هويّات من ينضمون إليها، ولا في سجلاتهم الإجرامية، فكل ما تريده فتى قادر على حمل السلاح، مطيع للأوامر، ينفذها دونما أن يفكر فيها.

هناك التقى بيعقوب صديق الدراسة بعد رحلة غربة فاشلة قضياها في المملكة العربية السعودية، وطُردا لمخالفتهما قوانين

الهجرة، وانضمّا لفرقته، وأصبحا من مرؤوسيه، يقتل كل من يأمره بقتله، ويحرس القوافل التي يكلف بحراستها، وأحياناً يعمل لصالحه رغم تحذير يعقوب له من خطر طموحه الشديد الذي سيقتله إذا ما استمر على هذا النهج، لكنه لم يكثرث.

الفصل السادس

ثعالب الصحراء

كانت البلاد الكبيرة تقصقص من أطرافها كل دولة تحاول أن تشعل حرباً في مكان ما، بما يتوافق مع مصالحها وسياستها وشركاتها التي نخرت في العالم كالسوس، سالبّة الدهن من لحم الفقراء الجائعين، والدم من أطرافهم التي تشكو ضربات الملايا والتيفويد، وجاؤوا بالمرتزقة الأفارقة والأسويين ورجال من أوروبا الشرقية يحملون الرشاشات، جاء الجميع ليشعلوا لهيباً لا ينطفئ، كان جنوناً أفرز حرباً أكثر جنوناً.. الدولة لم تقف مكتوفة الأيدي، ولم تترك مصيرها لتقرر فيه بنادق هؤلاء المارقين على دولهم وعلى القانون وعلى أخلاق الحرب، كانت كلما تخمد ناراً هنا تشتعل ناراً أخرى هناك، واستمرت هكذا سنواتٍ طوال لم يعرف خلالها الإنسان إلا الموت.

يحرث أرضها جيش من الخونة والجواسيس والقتلة وصانعي مشاهد الرعب، وقراصنة البنوك الدولية والشركات العابرة للقارات وصناديق المال الحرام التي تبذل لهم منه كثيراً كديون واجبة السداد تسيطر بها على مستقل شعوبهم، يدوسون على تاريخها، ويطمثون هويتها، ويعبثون بحدودها وثقافتها مستعينين بثعالب العصابات العابرة للقارات، يتاجرون في كل شيء؛ نهبوا الثروات، أصبحوا يمتلكون آبار نفط وغاز ومناجم للذهب واليورانيوم والكروم والكوبالت والحديد وغابات الصمغ العربي

ومزارع القطن طويل التيلة وقصيرها وحبوب القمح والكاكاو والقهوة ومواقع أثرية تعود إلى ما قبل العصر الطباشيري.. يقال إن حضارات شتى تكونت فيها، وحروباً كثيرة دارت في هذه البقعة، لكن التاريخ لا يذكرها، يصدرون الذهب والمعادن الأخرى في وضح النهار عبر المنافذ البحرية والبرية، ويدسونه تحت مقاعد الطائرات وفي أرحام النساء دون أن يوقفهم أحد، ومن يحاول أن يعترض طريقهم سيرسلونه إلى أهله في عربة نقل الموتى.

يعقوب الفتى الخجول الهزيل الذي كان يتغوط دُعراً عندما يضربه الخفير في الفصل أصبح قائد ميليشيا، صنع لنفسه تاريخاً جديداً من القتل والسحل والنهب والارتزاق وارتكاب أفظع الجرائم، وفي مخيلته ما كان يتلوه عليه الخفير في صغره من حكايات مغامرات شريرة بناها وحاكها الرجل الخمسيني ذو اللحية المدببة والأنف الأفطس والحاجب الذي يشبه ورقة الجوافة لترجية الوقت، وحثهم على الصمت عندما تتغيب مدرسة الصف.. لم تكن في مجملها قصصاً حقيقية، كانت مجرد ثرثرة وهراء، لكنها عبثت بعقول الصغار وأفسدتها حتى صارت كومة من القذارة يتغذى عليها الذباب، وتضع الهوام بيضها، وتفقس يرقاتها عليها.

خرج نادر بكل ملامح قسوته وخطروته وكأنه ملك الموت في لباس بشري، جاء لقبض أرواح كل من له حساب معه،

خرج ومعه مجموعة من جنوده المدججين بالأسلحة، وقاموا بإحراق عدد من القرى التي ينتمي ساكنوها إلى مجموعة عرقية مماثلة، وذلك لأن جندياً من جنوده تعرض للضرب من شباب قرية تبعد عن معسكرهم بضعة كيلومترات، لأنه تحرش بإحدى فتياتهم اللاتي يُشار إليهن بمسحة جمال فاتن وجاذبية وسحر يبلغ منتهاه عندما تحدثن، سحر رددته الحكامات في غنائهن.. أراد حملها معه على حصانه إلى حيث يسكن، لكنها تمنعت، وأطلقت صرخةً مدويةً، واستنجدت بفرسان قبيلتها وكل من جاء ماراً بالشارع ساعتيذ، فتصدوا له، وأوقفوه عند حده، لكنه أضمر الشر لهم؛ عاد بجنوده لينتقم لكرامته، فأحرقوا كل ما وجدوه يدب في الأرض، حتى النمل الذي يعمل بصبر لتخزين مؤنثه وهو في سباق مع المطر، إنسانها وحيوانها وطيورها، الخنافس والجرذان والصراصير والكداريك لم تسلم من الشواء، وعادوا إلى معسكرهم يتوهمون النصر العظيم الذي حققوه يرقصون على أغاني أم بليل الحكامة، ويرفعون رايات سوداء خُطَّ عليها رسم لجماجم مهشمة باللون الأبيض والأحمر مكتوب عليها بعبارة واضحة: قيامة ثعالب الصحراء موت بلا حدود.

الفصل السابع

حريق القرية

من أنت يا "أب طاقة" يا سيد الناس؟! وإن جهلوا مقامك يا صاحب المقام الرفيع، وما شرك؟! وما الذي بينك وبين ربك؟! بيوتنا عامرة، لكنها خراب، وأنت لا بيت تأوي إليه في المساء عندما تشتد الرياح ذات الصفير، ويعوي البرد بعد موت أمك العجوز التي جاء بها الجهادية (فرسان الخليفة عبد الله التعايشي) معهم يوم هزموا في معاركهم في توشكى كرري وكردفان، وتشتوا في البلاد بلا قائد يأكل صفوفهم الجوع، فاستعانوا بأسلحتهم لنهب الناس والاستيلاء على ممتلكاتهم.. امرأة مسكينة رموها في قريتنا مع طفل ورجل عجوز، وغادروا بهذه العبارات.

همهم خليل صاحب الدكان بعد أن تراءى له شبح "أب طاقة" العجوز في الظلام عائداً من المغيرة، وكأنه خيال مآتة، كان الوقت حينها منتصف الليل من شهر أغسطس والنجوم منثورة على صفحة السماء وأصوات الناس في الشوارع والأزقة قد هجعت.. اعتاد أن ينام هناك كل ليلة ممسكاً بشاهد قبر أمه الحجري المتسخ ببراز الكلاب وبول القطط، ويأتي قبيل مطلع الفجر ليحدث الناس في القرية عن أخبار الموتى الذين ماتوا قبل سنوات، وذابت سيرتهم في مجرى الزمن ومشاغل الحياة، يقول عن حالهم وحكاياتهم التي لم يمنحهم العمر القصير إكمالها كثيراً.. همس الناس بأنه نبي الله الخضر الذي وجده موسي في البحر عند الصخرة، واتخذ

معلمًا أو وليًا من أولياء الله الصالحين الراقدين تحت القباب أو الجالسين في الخلاوي يداعبون مسابحهم الطويلة.

ما إن رأى "أب طاقية" خليلاً يقف أمام دكانه في هذا الوقت حتى صاح في وجهه بذعر أخاف خليلاً نفسه: "أبوي خليل، السيل جانا، اربط عمتك في وسطك، واتحزم، وانكرب عوك يا ناس الحلة، يعقوب ود فاطنة بت جار الله الدلالية الدم الهبوب، ما تنوموا نوم الغول" .. خرج بعض الرجال في القرية إلى حيث مصدر الصوت، ورفعت النسوة رؤوسهن من خلف الجدران الطينية القصيرة المدهونة بالطيني المخلوط بروث البهائم المختمر، فبدت ناصعة تحت ضوء القمر وهنّ نصف عاريات ونصف نائمات، تفوح منهنّ رائحة العطر البلدي ودخان السجائر. رأى الناس "أب طاقية" يجري حافيًا، وكأنه إعصار من نار، حاولوا إيقافه واعتراض طريقه، لكنه لم يتوقف، كان يركض كأنه يود أن ينفلت من عقال الزمان والمكان، ولينفذ من أقطار السماوات والأرض، توقف منهكًا عند بيت شيخ القرية، صدره يعلو ويهبط كسمكة البرد، وجلس في الحوش الكبير المفروش بالرمال الناعم والسجادات المصنوعة من سعف النخيل، تجرّع ماءً باردًا من الزير، وأخذ يبيكي بشدة أيام الشيخ ود أبكريك في القرية، الشيخ الذي كان يعامله كابن له من صلبه، ويعامل أمه العجوز كأخت من صلب أبيه، حتى دفنها في مقابر القرية ذات

نهار، ونزل بنفسه في قبرها، ووضع تحت رأسها طوبة من اللبن غير المحروق، ورفع يديه بالدعاء لها شاكرًا كل من ساهم في تشيعها، وتعهد برعاية ابنها "أب طاقة" والتكفل.

ضحك بعض الناس مما حدث، وسخر بعضهم مما يقول "أب طاقة"، ووصفوه بالمخبول والمهرج العجوز الذي لا هم له إلا انتزاع ضحكات الناس، عادوا لإكمال نومهم الذي قطعه عليهم صوته، ليتمرغوا في أسرّتهم ولحافاتهم الناعمة، وليكملوا ما بدؤوه من عناق وقُبُل ولعب مع النساء حتى يشعروا بالرضى.

إلا خليل صاحب الدكان، لم يشأ أن يكمل زجاجة خمره التي كان يحتسيها عندما مر به إعصار "أب طاقة" الناري، الإعصار الذي دمر كيانه، وخلف في نفسه أشباحًا ووساوس، جلس منهأً على عنقريّة الخشبي العاري من الفراش، وقال لنفسه: من يعقوب هذا؟! وهل هو ابن الدلالة التي تسكن حلة فوق كما يقول "أب طاقة"؟! أم مجرد تطابق أسماء؟! وما الدم الذي يعنيه هذا المبروك؟! وما علاقته بـيعقوب؟! وأي هبوب ستلفحنا وتقضي علينا؟! ربما هناك خطب ما، وكارثة ستحل بنا، فالدم والهبوب هما إلا نذر كارثة.. لو كانت والدته على قيد الحياة لذهبت إليها على الفور لتفسّر لي ماذا يقول وحيدها الذي حلت به البركة.. تمدد على عنقريّة تخنقه الوسواس، حتى صاح الديك، وأذن مؤذن القرية لصلاة الفجر.. لن يستطيع إكمال زجاجة خمره،

الخمر التي ظل يشربها ثلاثين عامًا دون توقف، ضاربًا بكل تحذيرات الأطباء وبناته عرض الحائط الأصم.. ها هو اليوم يزديها ويكرها ويدفعها بعيدًا عنه.. ذهب إلى منزله، وصمم على دعوة "أب طاقة" ليشربا الشاي معًا في الصباح، وعليه أن يقول شيئًا ما يريحه من طوفان القلق الذي يبتلع روحه ويعذبها.

صاح خليل وهو يقترب من منزل ود أبكريك: يا ناس البيت، "أب طاقة" المبروك ما زال عندكم؟! أنا بحاجة إلى الحديث معه.. خرجت طفلة ذات وجه طويل وعينين بريتين سوداوين وفم مبتسم تلبس فستانًا بني اللون رُسمت عليه أزهار برية تحمل سلة من القش وتلف يدها اليمنى حول مقبضها، قالت له وما زلت ابتسامتها معلقةً على شفيتها: "عمي،" "أب طاقة" فات قبيل، قال الليلة روجو محرقاهو وداير يطفش من البلد دي قنع منها ومن خيرا فيها ولبس العراقي الجديد ومركوب النمر والطاقة".

عاد خليل إلى دكانه خائبًا يجر رجليه وخفي حنين جرًا وكأنه يحمل فوق رأسه السحاب المحمل بالمطر.. مريومان على غيابه، ولم يظهر "أب طاقة".. افتقدته المقبرة وكلابها وقطتها ووطاويتها والنسوة اللاتي يرفعن عقيرتهن من فوق الجدران الطينية لسمعن ما يقول، ولا أحد في القرية سيسأل عنه، من يسأل عن مسكين ليس له أهل في هذه القرية ولا زوجة ولا أبناء؟! جاءت به أمه يوم جاء الجهادية الهاربون من جحيم مدافع الإنجليز، وجدوه

ميتاً ذات صباح، ولا أثر لكدمات في جسده النحيل، مات، ومات سره معه.. لم يفتقده أحد إلا خليل أصحاب الدكان، كان مؤرقاً، ووجهه مقبوض كأن الدم وحرب يعقوب أعلنت عليه نفسه.. أغلق خليل دكانه شهراً حزناً على صديقه.. مضت ثلاثة سنوات على موت الرجل، شاخ فيها خليل، لم يتبق في رأسه شعيرات سوداء، وزحف الصلع بلا هوادة كرمال متحركة.

كانت مدينة الجنية وقتذاك قلب إفريقيا النابض، وترس لا غنى عنه في عجلة دوران اقتصادها.. استقر بها يعقوب بعد أن ترك الخرطوم التي وصلها على ظهر شاحنة إسمنت، مفلساً ومطروداً، لم يبقَ فيها طويلاً، نزل في حي الديم جنوبي المدينة عند صديق له، ولم يذهب إلى قريته، وهو يعلم أن أباه مات في غيابه، وأمه مريضة بداء السل، وأخاه الأصغر مدمن خمر، ولا يُعتمد عليه.. ماذا يقول لها بعد كل هذه السنوات وهو يعود مفلساً ولا يملك حتى ثمن فاتورة علاجها من مرضها الذي تفاقم وتجاوز مرحلة الشفاء؟!

استقل القطار حتى مدينة نيالا، ومنها وجد قافلة جمال ذاهبةً في اتجاه الجماهيرية العربية الليبية، عرض عليها خدماته هو وصديقه، فقبلوا.. عملاً بجدد، وبعد وصولهما إلى الجنية عرض عليهم أمير القافلة أن يعملوا معه في تهريب الجمال، فوافق يعقوب على الفور.

هبط الجنيّة ذات صباح، وكانت السماء حينها تمطر وتغسل المدينة الخارجة من نعاسها من آثار الحرب المدمرة التي تدور في الجبال.. لم يبقَ طويلاً في المدينة التي استأجر فيها غرفةً في حي ولع الذي يقع على أطرافها في الجانب الشرقي منها، ويقصده المهربون والطلاب والتجار، ومنها تسلل إلى دولة تشاد عبر عربة كومر يقودها شاب من أبناء قبيلة الزقاوة، عربة دبرها له أحد معارفه بالمدينة..

وصل مدينة إنجمينا عاصمة التشاديين بعد أسبوع من المسير في طرقات وعرة ووديان وخيران.. مروا خلالها بالعديد من المدن الصغيرة، وشاهدوا المزارعين وعمال المناجم الذهب يعملون بجهد لكسب عيشهم.. وهناك في إنجمينا عملوا في تهريب الصمغ العربي والعطور إلى داخل السودان، توغلوا في إفريقيا حتى الكاميرون، وجلبوا حبوب الكاكاو.

كوّن يعقوب ثروةً كبيرةً، وأصبح لديه العديد من الرجال لحماية تجارته، ونشط في تهريب الجمال وإناث الضأن والبقر والسلاح، تحالف مع السلطة الحاكمة في المدينة، وأخذ يقدم لها الخدمات المشبوهة مقابل امتيازات تمنحها له، وأغضت السلطة بدورها عينها عما يقوم به من جرائم في حق بعض القبائل ومن عمليات التهريب التي تضر بالاقتصاد القومي.

تمدد نفوذه، وأصبح يقدم خدماتٍ لدول مجاورة؛ يخدم

نيران المظاهرات التي تندلع في مدنها، ويختطف المعارضين والمعارضات والصحفيين والصحفيات والعلماء والناشطين ورجال الدين الإسلامي والمسيحي، ويعمل على توصيل صفقات السلاح -بمعاونة الشركات الكبيرة المصنعة- إلى القبائل في الأدغال الإفريقية البعيدة، وإلى رجال المعارضة، وأحياناً يتدخل في الحروب التي تدور رحاها بين القبائل والدول لترجيح كفة من يدفع له الأموال والذهب، ولإرضاء الدول العظمى التي لا تريد الاستقرار لبعض الدول، فتتخذ كمخلب قط لتنفيذ أجندتها.. هو لا يمانع في قتل أمه إذا ما دفع له أحدهم الثمن.

أصبح قوة ضاربة، وذاع صيته، وصار اسمه يتردد في مجالس اجتماعات الدول الكبرى، وفي اجتماعات رجال مخابراتها وعصابات شركاتها؛ الكل يريد أن يكسبه لصالحه.

وذات يوم حدث أن تشاجر في القرية التي ينحدر منها شقيقه مسلم مع أحد الشبان من القرية نفسها في حفل عرس، فضربه أهل العرس حتى مات، فوصل الخبر إلى يعقوب، وكان حينها يقاتل قوات الجنرال خليفة حفر بإيعاز من دولة عربية كانت تدفع له وتمده بالسلاح والمرزقة الأجانب، وبعد أن بلغه الخبر حزن بشدة وغضب، وقال إنه سيأتي في ألف جندي لينتقم من القرية ويحرقها عن بكرة ساكنيها.

هنا قال خليل لنفسه: صدقت نبوءة المسكين "أب طاقة"، وها

هو الدم سيسيل في شوارع القرية وأزقتها حد الركب، وتغتصب النساء والطفلات، وتنهب الأموال والماشية، وتباع النساء في الأسواق كما تباع الرقيقات في سوق العبيد؛ لا يمكن لأحد إيقاف هذا المعتوه.. وتساءل: كيف لنا أن نتصرف حيال هذا الأمر؟! لا أحد في القرية مهتم بما يحدث، فهم بين غير مصدق لكلام يعقوب، وبين لا مبالٍ، ولم يقوموا بأية إجراءات احترازية في حال ما نفذ يعقوب وعده.

ذهب خليل إلى قسم شرطة القرية، وحدث ضابطاً حديث التخرج في كتفه دبورة واحدة، قال خليل: ماذا تريدوننا أن نفعل؟! كل الأمر مجرد تحديد ونبوءة يتفوه بها بعضهم، دعنا نرى ما ستسفر عنه الأيام، وحينها ستتصرف وفق ما تراه متناسباً.

وصل يعقوب على رأس جنوده، ولم يضيع كثير وقت في محادثات ومشاورات مع ساكني القرية؛ كان غاضباً بشدة، أطلق يد جنوده، فحاصروا القرية ثلاثة أيام بلياليها، استباحوا فيها كل شيء، لم يسمحوا لأحد بالخروج منها.

قتل يعقوب مدير المدرسة عثمان الضو الأقرع بحجة انتمائه للحزب الوطني وتضييع الطلاب والعبث بمستقبلهم، لم تشفع له سنواته الستون وعمره الذي أفناه في خدمة أناس القرية، ومرض ضغط الدم الذي يعاني منه، ذبحه بغير رحمة بسكين استلّها من ذراعه.

وذهب بعدها إلى الخفير في بيته القديم، سأل بعض الصبية الذين كانوا يلعبون بفوارغ الرصاص والدانات عن بيت الخفير، أشاروا له على بيت من الحجر والزك بالقرب من الشفخانة، دخل عليه في غرفته، فوجده طريح الفراش يعاني من تضخم البروستاتا وتهتك الطحال ونقص في الدم، جلس يعقوب على مقربة من قدميه، أزاح عمامته عن وجهه، وضحك ضحكةً سمعها حتى الجيران، وقال موجهاً حديثه إلى الخفير: هل تعرف هذا الوجه؟! انظر إليه جيداً يا خفير الشؤم، قال له: لماذا تريد أن تموت قبل أن نصل إليك؟! أنا هرقل العظيم! أنا يونس ودالكيم! أنا الزبير ودرحمة! أنا مصارع الثيران ومجندل قطاع الطرق! أنا من كانت تغني باسمه الغانيات في حلة الكتر! هل نسيت كل هذه القصص التي حققت عقلنا بها فصار مسموماً؟! كنت تستغل تغيب الأساتذة وتأتي لتقرفنا بحكاياتك، انظر إلى ظهري، ونزع يعقوب قوله، ليرى الخفير آثار الجلد عليه، كل هذه الندب والخطوط بسببك! كم تبولت على نفسي ذعراً من جلدك! ونزع عنه المحلول الذي كان يغذي أورده، فسهل، ومات.. ركله برجله في وجهه الشاحب بعد أن توقف الدم عنه، ولم يكثرث لصرخته التي أطلقها قبل أن يموت، الصرخة التي فزع لها كل من كان موجوداً بالغرفة.

وجد صديقه الطبيب خالد الذي أرسله أبوه ليدرس الطب في روسيا، وعاد ومعه شهادة في طب النساء والتوليد، واختار قريته

ليعمل فيها، لرد بعض جميل أهله.. كان خالد في شفقخانة القرية يولد امرأةً من كمبو (٦٣).. أرسل أحد جنوده في طلبه، فقال الطبيب لمن أرسل إليه: إنه مشغول جداً في هذا الوقت، وتحت يديه امرأة متعثرة في الولادة، لو تركها ستموت.. غضب يعقوب من تصرف الطبيب، ووصفه بالمتعجرف، ودخل عليه في غرفة العمليات، وقتله بلا رحمة، وقتل المرأة وجنينها الذي خرج من بطن أمه قبل دخول يعقوب ببضع دقائق، كان الطبيب يحمله لينظف أنفه من السوائل لحظة تلقي الرصاصة في صدره، سقط، ولم يسقط الطفل؛ ضمه إلى صدره، لكن يعقوب أرسل رصاصةً أخرى إلى صدر الطبيب اخترقت جسد الصغير، واستقرت في صدر الطبيب.. وأمر يعقوب رجاله بحرق الشفقخانة.

ذهب بعدها إلى منزل ود أب كريك عمدة القرية وشيخها، وقام بطرد أسرته من منزلهم، ونصب نفسه عمدة على القرية.

سأل الناس عن العجوز "أب الطاقية"، فقالوا له: لقد مات الرجل منذ سنوات؛ وجدوه ميتاً خلف التربة عند أكوام قصب الذرة، يقال إن ثعباناً ساماً لدغه، لكن لا أثر لأي شيء في جسده.. بكى عليه وكأنه أبوه الذي لم يحضر جنازته، أبوه الذي مات وهو في قريته في مدن الملح.

أمر أحد جنوده المقربين إليه بالذهاب معه إلى المقبرة ليودع الرجل (مسيح هذه البلاد الأسمر) الذي كان يحارب ويقا تل على

طريقته البريئة ضد سم حكايات الخفير التي حقن بها أدمغتنا
وضد سلبية المدير.. ذهب إلى قبره، ونثر فوقه الذرة وثمار السدر
والنخيل، وقرأ الفاتحة، وأمر بصنع شاهد قبر يكتب عليه بخط
كوفي واضح: "هذا قبر المغفور له -ياذن الله- مسيح هذه البلاد
المسيح الأسمر (أب طاقية محمد ود عشة) طيب الله ثراه".

وبعد يومين من زيارة قبر "أب طاقية" قرر أن يعود لمواصلة
القتال، فهناك معارك كبيرة في انتظاره.. سحب جنوده من شوارع
القرية، وعاد أدراجه من حيث أتى.. حينها وجد سكان القرية
فرصةً لدفن موتاهم ومعالجة جرحاهم.

الفهرس

5	الإهداء
7	المقدمة
11	الفصل الأول: الأفغاني العجوز
27	الفصل الثاني: خلخال العمر
41	الفصل الثالث: نبوءة "أب طاقة"
53	الفصل الرابع: مراقبة النساء
65	الفصل الخامس: نصف مغنية
75	الفصل السادس: ثعالب الصحراء
81	الفصل السابع: حريق القرية

